ليس فى رصيف الأزهار من يجيب

مالك حداد

رواية

** معرفتي **
www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

25

من أعمال إيفلين عشم الله

الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق الكتابة

آفاق الكتابة

ليس فى رصيف الأزهار من يجيب

ترجمة : ذوقان قرقوط

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

المشرف العام
على أبو شادى

أمين عام النشر
محمد كشيك

رئيس التحرير
ابراهيم أصلان

مدير التحرير
حمدى أبو جليل

آفاق الكتابة

منتديات سور الأزبكية
www.books4all.net

آفاق الكتابة
(25)

ليس في
رصيف الأزهار من يجيب

رواية

مالك حداد

ترجمة

ذوقان قرقوط

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 1999

1

كـان القطار، كـتلك الخـيـول التى يـثـيـر نفـرتهـا اقـتـرابهـا من الاصطبل، ينتشى من سرعـتـه ذاته ومن نـفـاد صـبره وهو قـادم من مـرسـيليـا، مـقـبل على باريس. وخطر فى بال خـالد: «قـد يقـال أنه يحضر للامتحان».

كان المطر ينهمر فوق الزجاج الواقى. ولم تكن قد اغمضت عين لخالد. فهو عندمـا كان أصغر سنا لم يكن ينام قط عشية الامتحان. وها هو أيضـا على طريقته يحضـر كالقطار للامتحـان، اللهم الا هذا الفـارق بينهمـا وهو أن هذا القطـار يعرف بالضـبط الى أين يذهب، وأنه لا يوجه الى نفسه أسئلة.

ترى هل تسـلم سيـمـون، فى الوقت المـنـاسب، برقـيـتـه التـى يطلب منه فـيـهـا أن يحـضـر ليكون فى انتظاره بالمـحطة؟.. ان الانسـان ليـخـامـره شـعـور باليـتـم عندمـا يهبط فـى مكان مـا فـلا يجـد أحـدا

بانتظاره. غير أن هذه المشاعر كانت لا يخالطها أية غيرة ولا أى حسد لأولئك الذين يستقبلون بالابتهاج والترحاب، وتعابير مبتذلة، مستهلكة كثيرا رغم أنها تطفح بالعطف وبالمودة.

ترى هل يجد بانتظاره من يقول له : «هل كانت سفرة موفقة يا خالد؟» أنه لم يشك لحظة واحدة فى ان سيمون سوف يكون بانتظاره على الرصيف.

والآن ها هى الحدائق والمنازل الصغيرة وأبراج الأجراس التى تتوارى بعضها أثر بعض حتى تندر رؤيتها. وها هى الآن تلك الضاحية التي تعرفها كآبته بطرقها الكثيرة ومحطاتها العديدة التي لا تتوقف عليها قطارات النهار أبدا. وأخيرا ها هى الأحرف الحمراء التي تعلن الوصول: «باريس، ٦ كيلو متر».

كان خالد قد أعد الكلمات التي سوف يقولها لسيمون وتهيأ للمظهر الذى سوف يتخذه ليخفى به عاطفته. غير أنه طيلة الليل كان قد «حضر لامتحانه» وهو يشعل السيجارة إثر أخرى، وذلك بينما كانت تمر خلف الفتحات الزجاجية المعتمة أشباح المناظر الطبيعية والذكريات التى لا تنفك تذهب ثم تعود.

وقفز الى الرصيف، يقلد مشية المسافر العادى الذى لا تربكه حقيبته الصغيرة ولا مشاكله. وغدت الأمتار الأخيرة أطول مسافة كان عليه أن يقطعها. ولم يكن قد أبصر بسيمون بعد فاذا باحساس

عجيب من التشوش واللا واقع يعتريه. يقال «ان الصباح شاحب» حقا إنه لشاحب.

لا شك في ان سيمون سيكون بانتظاره بباب الخروج. ولكن سيمون لم يكن هناك. وكانت محطة ليون تبرز بقية فنها الغريب تحيط به، كالاسورة، في سماء مكفهرة. أشكال دائرية غير منتظمة.

وانتظر خالد حتى ينتهي انسياب سيل الجمهور قبل أن ينادي سيارة أخرى. كان واضحا كل الوضوح أن سيمون لم يأت.

– شارع بونابرت من فضلك.

يعرف خالد في هذا الشارع الواقع في المنطقة السادسة، فندقا، كثيرا ما نزل فيه وأقام طويلا أيام كان يأتي للمكوث في باريس.

لكنه استمر في عجبه لغياب سيمون طوال الطريق إلى الفندق وراح يعلل نفسه: «أنه بلا شك لم يتسلم برقيتي قبل الموعد بوقت كاف..».

هكذا لأول مرة لم يجب رصيف الأزهار.

لقد تعذر على خالد من ناحية أخرى اكتشاف فندقه القديم، ذلك أن واجهته كانت قد جددت كما تغير المالك.

اذا بكلمة من كلمات جيد تخطر في باله:

« لا تهيئ أفراحك..»

www.books4all.net ** معرفتي ** منتديات سور الأزبكية

2

فى ذلك الصباح من شهر اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٤٥ كانت ليسيه قسطنطينة، متأثرة، محمومة، واثقة من أهميتها. وكانت الأشجار التى تنبت باعجاز فوق الصخر وفى وسط القار، كئيبة، قد مسها البرد كأولئك الطلاب الداخليين الذين لا تستطيع عنايتهم المفرطة بربطة العنق أن تكتم فيهم الحنين الى شواطىء الاستحمام والى الأضواء الدافقة، البيضاء فى الجزائر. أما الضوء فما تزال بقية منه الا انه ضوء خافت، وجل بدون قوة وبدون عتو. وفوق الباحة الرئيسية كانت السماء تعبر عن الحسرة الأولى التى تجرعتها. والحوائط التى زينت بخزف فاتح اللون كثيرا تجعل ساحاتها الطويلة، المسقوفة، عابقة برائحة المستشفى بينما راح المدرسون يتبادلون رواية عطلتهم ومآثر سياراتهم، فى اجتماعات سرية يخالها الطلاب ذات أهمية تربوية. وكانت البلاد تعانى مشقة للرجوع الى

حالتها العادية بعد ربيعها الدامى [1] وطفقت طيور اللقلاق تنظم سفرها. وفوق التلال المحيطة بالمدينة كانت الأرض صفراء، صفرة متسخة، محترقة. وفى مضايق جبل الرمال التى تطل عليها المدرسة كانت طيور القاق نشوى من فرط دورانها. وكان السيل الذى يجرى بعيدا فى القاع، لا تراه العين، وان كان هديره المرعب يملأ الأسماع، يمضى الى سبيله غاضباً.

***

انتظم سيمون كويدج - وهو تلميذ فى قسم الفلسفة - فى الصف عندما قرع الجرس. وتشاء الصدفة أن يتدافع الطلاب فاذا به لا يجد مكانا الا الى جانب خالد بن طوبال: وهكذا يلتقى تلميذان على مقعد سمح من مقاعد الشباب لدراسة برغسون وديكارت وللتنكر للشيخ ابن باديس [2] ولشعراء الجزائر، هؤلاء الذين لا إسم لهم ولا لغة.

كان سيمون ابن حلاق وخالد ابن ساعى بريد. وطلب السيد ألان لوتريفيك الصمت. فاذا بالصمت يسود. ثم يتوجه الى الصبية فى مقاعدهم قائلا:

- سوف تتذكرون جميعاً هذه السنة!.

فى الحقيقة، كان لا بد لهم جميعهم من أن يتذكروها.

---

(١) اشارة الى المآسى فى حوادث ٨ مايو ١٩٤٥ فى منطقة قسطنطينة لا سيما فاجعة صطيف.

(٢) مصلح عظيم وعالم من علماء المسلمين المحدثين وعلم من أعلام الوطنية.

وانتهت فترة الصباح ولما يزل خالد وسيمون يتخاطبان بصيغة الجمع.

- أسكن فى ضاحية لامى.

ويجيب سيمون:

- أسكن حى الغاليت.

كان خالد وسيمون ولدين كبيرين بعض الشىء، هزيلين بعض الشىء، عيناهما لا تبصران أبعد من حدود ايمانهما الطيب.

إن الصداقة فى السابعة عشرة من العمر تعنى شيئاً جديراً بالاعتبار. انها فى بداياتها ضرب من الحماس. أما هذه الصداقة فقد ولدت على استحياء كما يفقس الدويرى دون ضجة. وكانت ظريفة ووجلة كالدويرى. الا أن دويرى السابعة عشرة تخامرها رغبة خفية فى أن تصبح نسورا.

- صداقتنا صداقة تاريخية!

لقد كانت جميلة وكانت حقيقية.

وأضاف خالد:

- هل اطلعت على قصيدتى: اصغوا لفارسوفيا وهى تصير بولونية؟!

- وأنا أقرض الشعر كذلك.

فى سن السابعة عشرة يحتاج المرء الى لقب ولكن للبراءة أوجه

نبالتها فهى موجودة، تؤكد ذاتها قبل صيرورتها. فالمحاريث ليست جميلة الا وهى تتقدم الثيران.

***

سرعان ما اشتركت الجزائر معها شاعريها الشاديين. لم يكونا نسرين ولكن مجرد هزارين. هزاران شجاعان من المرتبة الثانية. هكذا الى أن جاء ذلك اليوم الذى قرر فيه أحدهما الصمت.

يجب النظر بعين الاعتبار الى البلابل الصداحة والنظر بعين الاعتبار الى البلابل التى تكف عن الغناء فان هذه وتلك حالتان تعيستان من كافة الوجوه.

بيد أن واحدا منهما سيىء الطوية ولا يجدر به أن يذوق طعم النوم.

3

كان خالد فى اليوم التالى نفسه لوصوله الى باريس يعرف أن هناك رواية آخذة فى نسج خيوطها، سيكون المنفى بطلها أكثر مما يكون الاطار.

الخوف يكون عندما يندر الرجال. فخالد بن طوبال يحتاج الى اعادة بناء حياته لذلك اختار، وهو قد اختار اختياراً نهائيا. الا أنه يعرف الافصاح عن الفروق الدقيقة. فضوء القمر حسير؛ أخضر. ونهر السين كأنه أنشودة. وثمة قط يحرص على أن يندس بين عجلات احدى السيارات. وهناك كلب يتبع خالد بعناد وهو كلب لا رعاية له أو مجتمع يحميه.

لم يكن الليل قد هبط بعد. الزوج يحدث جلبة وهو يبول وباب الحمام غير مغلق تماماً ومونيك فى غرفتها، تخلع ثيابها.

بيد أنها تسمع نجاوى الابتذال، تلك الأمور اليومية التى أصبحت

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية
معرفتي

مألوفة جدا. والحب الذى لا يمتنع دوما على هذه المودة نفسها.

ومجون مونيك هو، وحده، ومهدها. وصدرها يضج رغبة فى الصراخ.. انه شعر، كل ما فى المرأة شعر وان كره ذلك الأميون.

فالصديرى غيور، وأحيانا يكون الانفعال الجياش فى الصدر وجدان قصيدة لم تكتمل.

مونيك تعرف أن تكون جميلة.

ها هى تتجرد من حشمتها وتندس فى الليل. ان مشد نهديها وردى. والكرز وردى كذلك. أما الصمت فلا ينطوى الا على الحب. وينتهى الشعر. كان ينبغى أن يبول بأناقة.

***

وتنظر مونيك الى صدرها. وعلى الرصيف، ينظر خالد الى السين. وتلامس مونيك خصريها برفق كما لو كان خصراها هما السنين. ويسقط القناع فتبرز المرأة. فهى تعلم بأن بطنها قربان وأن فخذيها تنتظران سيطرة الامبريالية التى لا تأتى الا من القوة أما الآن فالمهد أسود وهو دعى فى غموض. ويواصل السين سيره الهوينا. وتنذر السماء بالمطر.

وها هى مونيك عارية. لقد رقصت فوق الرؤى. وهى لا تزال تلامس خصريها برفق. تتيه بنفسها عجبا.

الحب، يا له من عجب.

وسيمون يريد مطارحتها الحب.

ومونيك تخاف دائما هذه اللحظة.

فقد كان سيمون بدينا، قصيرا، ترتجف يداه فى تلك اللحظة.

ألقى خالد سيجارته فى السين وقرع الجرس. وكانت مونيك هى التى جاءت تفتح الباب.

***

كان مبذلها ينم عن نضرتها. ان النظرة الأولى هى التى تكون ذات قيمة. وكان خالد يرى بسرعة وبدقة وكانت الأرضية الخشبية (الباركيه) جد صقيلة. وفوق البيانو قط فارسى، بزرقة القمر يحلم، وفى ركن من أركان غرفة الجلوس طاولة من السراميك، تحمل منافض للسجاير ذات الوان متعددة.

- أستميحك عذرا، أنا صديق لسيمون. أظنك السيدة كويدج؟

فأجابت مونيك بابتسامة

- ذنبى لا يغتفر مرتين. أولا لإزعاجكم فى مثل هذه الساعة.

ثم لأننى لم أقدم نفسى: اسمى بن طوبال، خالد بن طوبال...

عندما لمح سيمون خالداً تجلت فى عينيه نظرة جوفاء كمن يخرج من العتمة فيستقبل فى عينيه مباشرة، دفقة من النور.

- أهذا أنت؟

- لا أخفى عنك شيئاً؟ أجل ها أنا ذا. كنت مارا من هنا..

- ولكن ماذا تفعل فى باريس؟

فكر خالد لحظة طويلة وهو يجلس على المقعد الذى يقدمه سيمون على حين كانت مونيك صامتة ولا تزال واقفة خلف زوجها واستيقن خالد من أنه يعكر صفو نظام قائم ويقلب رأسا على عقب عشر سنوات من العادات الطيبة القديمة- وكان صمت مونيك مثقلا.

وسأل سيمون:

- لماذا تبتسم؟

- لاننى اخال نفسى وكأننى هبطت عليكم كالشعرة فى الحساء..

- انك مجنون.. ومن ناحية أخرى، فالحساء ستقاسمنا اياه. ولكنك لم تقل لى بعد ماذا تفعل فى باريس...

- احج.

- وهل تمكث زمنا طويلا؟

- اجهل هذا.. بقائى مرهون بالحرب، فهى تقرر نيابة عنى.

ولم يلح سيمون فى السؤال.

فى غضون فترات منتظمة تقريبا، كانت مراكب النهر البخارية تغمر جزيرة سان - لوى بأنوارها. والليل يعدو فوق السطوح فى غمرة من الاسرار.

واذا بفتاة، تظهر، جميلة، كالصورة. انها نيقول بسنواتها الاربع تختال فى بيجامة زرقاء. فتفرست فى وجه خالد ثم اندست فى كنف

والدها. ذلك أن الصلة لم تقم بعد بينها وبين خالد فالاطفال يحبونه عادة.

– حسنا! أنا عندى ثلاثة: صبيان وبنت...

– انك تمضى مسرعا.

– كلا انما أنا على عجل من أمرى.

جالت كلمات خالد طويلا فى خواطر سيمون. فقد كان يحمل كلماته الرصانة المؤلمة، المربكة، كمن يضفى على نفسه طمأنينة أولئك الذين يشيخون قبل الاوان والذين يتجنبون الكلام قدر المستطاع حتى لا يقولوا شيئا. كان يحدث له، هكذا أحيانا، أن يعبر بجمل قد يظن أنها متكلفة ومعدة اعدادا دقيقا، بينما كانت تتدفق، عفوية، طبيعية.

– أهى العودة الى المنابع؟

– كلا، أجاب خالد، انه الحساب.

عادت مونيك بعد أن أنامت ابنتها. ولاحظ خالد انها غيرت هندامها. كانت ترتدى تنورة مثناة، سوداء مرصعة بأزهار حمراء وصديرية بيضاء، بسيطة كل البساطة ونظيفة كل النظافة، كفتاة صغيرة من أسرة طيبة. كما لاحظ أيضا انها تبرجت من جديد. ولاحظ خاصة أن يدها الطويلة، الشاحبة التى كانت موضوعة على كتف سيمون، لاظهار الالفة، يخيل له انها يد هجومية. وهكذا أعلنت

الحرب الباردة بين أمرأة صغيرة طيبة، جميلة كل الجمال وبين شاعر كان يحج.

واستيقظت شخصية المنتصر فى خالد. فالمبارزة بدأت. فلا بد له من أن يتخير أسلحته من مستودع وسائله: اللطف. ثم لا بد له من فرض هذه الاسلحة. أما سيمون فان طبيعته الحدسية جعلته يحتمى فى التجريد. غير أن العشاء كان بديعا. وقامت مونيك بنقد آخر كتيب لخالد، نقدا قاسيا. على حين أخذ خالد يتلهى بهذا النقد. ان المداهنة كانت جد واضحة. ذلك أن المرأة عندما تصبح غير منصفة تكون قد تقهقرت بلا شك. وكان الحساء جيدا واللحم طريا والصفاء يغمر رصيف الازهار. وصفارات سيارات البوليس وحدها، التى كانت تنبعث من ناحيتى فندق المدينة وكنيسة نوتردام، تذكر بأن المشاكل، جميع المشاكل لما تزل مطروحة. ويستوى مربع أجمل مدينة فى العالم، فى مكانه. فباريس لا تحلم ليلا.

بيد أنها، هنا كانت الواحة. وقال خالد:

- هذا المساء، سوف لا نتحدث فى أمور جدية...

لم يكن يهرب من مواجهة الحقائق. لكنه كان يرى أنه لا فائدة لا بل أنه لمما يخالف الآداب، أن يجعل موضوع الحديث يدور بين الكمثرى والجبنة، فى اخر المأدبة.

وعوضا عنه ، فالمدرسة القديمة التى تشرف على الرمال

والازقة المضطربة وساحة الغاليت وساحة سيدى Rummal - جليس وضاحية لامى الجاثمة فوق الهضبة، إن جميع هذه الاماكن التى تقبع، فى مكان عميق من الذاكرة، هذه الموضوعات جميعها انتقلت برصيف الأزهار بعيدا عن محاذاة السين. ومونيك، مونيك الباريسية التى لم تكن تعرف الجزائر صارت بل وأحست انها غريبة. لقد أدركت الخطر فامتقع لونها عندما سمعت خالدا يسأله بصوته الخفيض، ذى الوتيرة الواحدة:

- يا عزيزى سيمون الا تعتزم العودة الى بلادنا ذات يوم!

- الى بلادنا؟

وردد سيمون كلمة «الى بلادنا» كانما كانت عبارة مجردة من أى معنى ومن أى محتوى ملموس.

- الى بلادنا.

إن شفتى خالد اعتراها انفراج يعبر عن نفاد صبره وعن عنائه في شرح حقائق بديهية.

- أجل الى بلادنا! لا أظن أن رصيف الازهار هذا أمر جدى. ومع ذلك كان رصيف الازهار يظهر بمظهر الجدية. فالاستاذ المحامى سيمون كويدج، المحامى فى المحاكم العليا، يملك فيه شقة رائعة الجمال. ومع ذلك فالأستاذ المحامى سيمون كويدج، المحامى في المحاكم العليا، يعبر عن نجاحه بلوحة نحاسية تقوم خادمة البيت

على تلميعها كل صباح. ومع ذلك فالأستاذ المحامى سيمون كويدج، المحامى في المحاكم العليا غير الآن سيارته واشترى دارة ريفية فى سان - لونير فى مقاطعة بريتانيا التى لم تكن مسقط رأسه، يقضى فيها أيام راحته. ومع ذلك فالاستاذ المحامى فى المحاكم العليا تزوج امرأة جميلة، اسمها مونيك، ذات عينين زرقاوين، زرقة صافية، من أسرة حوت فى شجرة نسبها أميرا بحريا ونائبين عموميين.

والحق خالد وهو يكاد أن يكون قاسيا:

- ان رصيف الازهار هذا لا يبدو أمرا جديا.

- اذ أن الأستاذ المحامي سيمون كويدج المحامى لدى المحاكم العليا كان قد تغنى ببلاده وبآلامها وآمالها مدة تقرب من عشر سنوات، عندما لم يكن بعد قد أصبح الاستاذ المحامى سيمون كويدج، محاميا لدى المحاكم العليا. وذلك أن شبابا من الجزائر قد انشدوا شعره فيما مضى. وخالد نفسه روى لأمه التى لم تكن تعرف القراءة والكتابة، بعض أخبار سيمون كويدج.

ذلك أن خالد بن طوبال، الصحفى والكاتب المنفى أمسى مصيبة وافدة حلت بزوجين سعيدين، ليست لهما مشاكل، ولكن التاريخ لا يعبأ بهذين الزوجين.

بعد أن استأذن خالد بالانصراف لم تكن مونيك مع سيمون فى يوم من أيام حياتها أرق منها فى تلك الليلة.

4

المنفى، انه عـادة سـيـئـة يجب أن نعـتـادهـا. والمـنفى، مـثـلا، هـو شـارع مـدام والنور الذى ينطفىء والليل الطويل وكـآبة الفنادق الشـاحـبـة. والمنفى، هـو، الحـرب، حـيث تسـأم باريس هذا الفـالس البنفسجى الزاهى، ورحى الحـرب تدور ليلا. والليل هـو الذى يسـوى جميع الأمور. كذلك فالليل هو الذى يضـع كل شىء موضـع التسـاؤل، من خلال السيارات البوليسية التى تنفرج نوافذها.

ومن خلال حى سـان - جرمـان الذى يحسب أن كل شىء مبـاح له.. فأين هى المنازل وأين هم الاطفال الذين لا حقائب لهم وأين هى الرومنطيقية التى تنطوى عليها السهرة الهادئة واين هم الجسـورون الذين تبيح لهم جرأتهم أنوار القمر وأضواء الحب؟..

وباريس، هى عادة سيئة يجب على المرء أن يعتادها.

وكان خـالد بن طوبال يجد دائما المتكأ الذى يرتكز اليه للوصول

الى بغيته. فقد تأكد أن السفرة ستكون طويلة.

وصرير المفتاح في مثلث النحاس المذهب. والمنفى الذى يضيق ليصبح مجرد رقم فقير لغرفة فى أحد الفنادق. والبواب الذى يتناءم. والحقيقة أنه لا يتظاهر بالنوم بل هو نائم حقا.

وهذه الكف من الحبر الصينى على اللوحة، التى تشير الى دورة المياه. الا أن الشقاء بنفسجى. انه فندق من الدرجة الثانية.

لكن كلمة مونيك تنتظر فى مخدع الغرفة رقم ٧: «لقد كذبت ذلك المساء. اننى أحب كثيرا كتابكم الاخير. هل تأذنون بأن أراكم ثانية. وهل تأذنون لى بتقبيل اليد التى تكتب...»

كان تأخير البرهان أو حجبه يتعلق بسيمون. فقد أصبحت الحرب سجالا تخمد هنا لتنشب هناك. الا بالنسبة لخالد الذى يعلم أية ذريعة هائلة تقدم الحرب للذين يهابونها فلا يخوضونها وبالنسبة لمن لا تزال أكثر جمالا من الخطأ، تلك التى تريد أن تهب نفسها لأنه ليس لديها ما تمنحه.

ذلك أن للماضى جميع الحقوق، فهو يرجع دائما، تارة بخطى وئيدة وتارة أخرى بشراسة، فيفرض نفسه ويفرض قانونه.

عندئذ لا أهمية فى أن يكون هذا الموعد للقاء فى رصيف الازهار أو بالقرب من مضيق الرمال أو فى أى مكان آخر. يقدم نفسه فينحنى كل شىء أمامه. فهو أشد ملكية من كافة الملوك. يجلب معه

ضماناته ومعاييره. ويحمل شاراته ورتبه. يوشوش في زاوية الأذن ومن زاوية الوسادة. ويتكلم في ركن المدفأة ويتكلم في الهواء الطلق. وهو وحده ليست له أغراض الحاضر الزائلة ولا ادعاءات المستقبل.

فالتاريخ، التاريخ نفسه، لا يكتب الا في الماضي.

خالد هو الخطر. فهمته مونيك ذلك في الحال. ذلك لأن خالدا يفكر في الماضي. ولأن عينيه، بداية، لا تريد التحديق في البعيد. ولان شعره الاجعد، القصير كالزبد الذي يلفظه البحر، واكلا اليه مهمة تجميد نفسه. والبحر هو الماضي ولكنه بداية، هو الماضي.

– أتعرف بلوا Blois من قبل؟

– كلا.

– يبدو القصر وكأنه من صنع حلواني، زينت واجهته في يوم عيد، تفح حجارته الحمراء بنوع من الهدوء لا يعرف كنهه.

وعلى مدى لا يحده البصر صوب شيفرني كانت غابة سولونيا تنتظم تنسيقها الذي لا يدانيه الخطأ.

– اذن ما رأيكم في سيارتنا الجديدة، هل تسير جيدا.

فعض خالد على شفتيه لئلا يجيب:

– لست ابالي بها!

***

أوقفت مونيك سيارتها بالقرب من بوفرون، وهو نهير مترقرق،

يُسمع خريره. كانت الأشجار تمرح. وأحد القوارب يمعن برومنطيقيته متمايلا بين القصب. والغابة تبدو بعيدة الغور.

وثمة ضفدع يتخبط. واشعة القمر تتدلى من أغصان الاشجار وفى مقر النهير يتراءى جسر صغير، مضحك وفاتن يتيه كأنه أثر من آثار الفن.

ويدنو القمر. فى حين يكون البوفرون هاجعا. والعُشب يتوجس خيفة. فيفكر خالد: «ان فرنسا فى ديارها جميلة، وفرنسا هنا لا تفكر بالحرب أبدا..»

لكن ركبتى مونيك مضتا شوطا بعيدا. والبوفرون يسبح باسطورة قديمة. والاشجار لا توشوش الا الحب المتاح. وكان الصدر الذى يستنطق لغز نفسه، غبياً ولطيفا. والاوراق ندية.

وهذه الممرات المرسومة لمطاردة الصيد، لم تجعل الغابة متحضرة، سهلة المسالك. على حين تتأرجح أضواء القمر بأغصان الأشجار.

وازرقت ركبتا مونيك من جانبيها المهملين. وثمة سلور يرقص مع القصب رقصة الفالس فى البوفرون. ويستيقظ الليل فى جسد مونيك فوق أرض الغابة السندسية.

كان خالد يحصب الساقية وتحدث مساقط الحصباء نقاط توقف. ومونيك المرأة، تريد من يحتضنها، الا أن خالدا كان يفكر بأمه. فلا

الركب المستديرة تمام الاستدارة، ولا النهد الصغير، هذا العصفور المسكين الذى يحتضن عاطفة محرمة. ولا الفم المتعطش الى أن تترجم النجاوى الى أفعال ولا الصديرى الذى لا يتمكن من كبح جماح البرهان على مغرياته، ولا نبع الماء الحار الذى يتدفق فى عروق المرأة.. كانت تثنيه، فان خالدا كان يفكر بأمه. ثم عبث الريح بالثوب. وكانت ريح الاشتراك فى الخطيئة فما من شىء يستطيع فى الأمر شيئاً. لا الريح ولا اليمامتان اللتان استسلمتا الى يدين آمرتين، حتى ولا البوفرون، حتى ولا السلونى، بل ولا الغابة...

كان خالد يقود السيارة فى العودة. ومونيك تدندن بلحن حديث. وتشق السيارة طريقها فى وحدة ثلاثية الاطراف: وحدة السهل ووحدة الليل ووحدة خالد. ثم اذا بمونيك تقول فجأة:

- أنا جائعة.

- سوف نتناول العشاء فى اورليان. ولكن، ألا يقلق سيمون، بعد كل هذا؟

- سأقول له أن أمى استبقتنى عندها.

- واذا هتف لامك يسألها.

- سوف تجيبه أمى بأنها استبقتنى فعلا.

فاطلق خالد قولته ساخرا:

- حسن! يمكن القول بأن عائلتكم متضامنة..

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

لم يكن يوافق لا على المشاركة فى الذنب ولا على التصميم المسبق. واكتفت مونيك بالابتسام دون أن يبدو عليها أى أثر للغيظ. كان فى خلاعتها لون من البراءة.

كان الخريف يستقبلهما مع النجوم الأولى المحجبة والحركة معدومة على الطريق الدولى رقم ٢٠.

- أمجنونة أنت؟

كاد خالد أن يفقد توازنه عند المنعطف. الا أنه عدل باحكام فمس، وهو يستعيد توازنه، الشجرات الكبار التى تحاذى الطريق، مساً رقيقا. وتشاركت عجلات السيارة. ذلك أن مونيك كانت قد لثمت يد خالد. وفى نيتها بقية تتلو...

- لقد اخطرتك باننى سأقبّل ذات يوم هذه اليد التى تكتب...

- والتى تقود حاليا، تمتم خالد، ولكنه فى الحال لام نفسه على الرقة التى أخذت تسرى فى جوانحه.

كان شعر مونيك يفوح بضرب من السحر. ثم قالت برزانة عجيبة.

القيادة والكتابة، هما، شىء واحد، أليس كذلك؟

- بشرط ألا ينزلق المرء خارج الطريق يا مونيك كويدج.

هذا التحديد باسم العائلة بدا وكأنه يعاكس رغبة الزوجة الشابة فأشعلت سيجارة ولاذت وراء صمتها. وكانت بشائر الانوار فى اورليان قد بدأت تطالعهما. ونوافذ السيارة المشرعة تفسح المجال

لعبق المروج النائمة.

وسألها خالد فى غدر:

- أما تزالين جائعة؟

- أكثر من أى وقت آخر.

وابتسم خالد عابثا. ان روح المنتصر استيقظت فيه. صحيح أن مونيك كانت صغيرة، صغيرة جدا، ولكنها عظيمة، عظم شراهة المرأة.

بعد أن استردا نشاطهما أثر الطعام، سألت مونيك الكاتب:

- على أى وجه يحسن بى أن أفهم ما قلته منذ هنيهة: «ان اسوأ ما يمكن أن يحيق بالانسان هو اشباع رغباته».

لكن خالدا لم يجب وضغط برجله على جهاز السرعة وأغذ السير نحو باريس.

5

انتهى خالد أخيرا بأن يقبل تحديد موعد مع مونيك – فى المدينة ليس بعيدا عن رصيف الأزهار، فى مقصف ملىء بالضجة، له طابع ريفى، يقع وراء أوتيل ديو(١) وذلك فى اليوم الحادى عشر من نوفمبر (تشرين الثانى). جلس خالد متكئا الى البسطة، يرقب تحايل شيخين صغيرين، يرتديان ثيابا جد نظيفة، لا تلوثها لطخة واحدة لكنها مدعوكة. وهما من نزلاء مأوى العجزة، يعلق كل منهما فى عروته شريطا ذاويا ويوجه الكلام الى الآخر، تبجيلا بصيغة الجمع. كان منظرا فاتنا، مثيرا، ويكاد أن يكون مربكا، أن يشاهدهما المرء، وأحدهما يقول:

– لا، لا، انكم، أنتم، دفعتم الحساب، المرة الأخيرة.

– هل قبضتم معاشكم؟

---

(١) Hotel - Dieu أقدم مستشفى فى باريس. فيما مضى كان فى فناء فوتردام الامامى. أحرق عام ١٧٧٢ ثم أعيد بناؤه. وفى عام ١٩٦٨ والى ١٨٧٩ بنى مستشفى آخر عوضا عنه فى الجانب الاخر من الفناء – المترجم.

- بحق الاله! سأقدم اليكم أى شيء بقيمة عشرين فرنكا!

لقد قال: «سأقدم اليكم أى شيء بقيمة عشرين فرنكا» بأنفة أحد أمراء المسلمين فى الهند، المترفعة وبجوده السمح وهو يعرض على زائره قائلا: «أيروق لكم هذا الرسم لرينوار؟ اذا فهو لكم»

- ثم ينادى طالبا:

- ايها الساقي! قدحين، صغيرين من النبيذ الأحمر.

كانت أقداح هذا الأحمر الصغير، صغيرة جدا. وكان يجب أن ترى تلك السلطة المضيافة وهى تبسط عملتها لكى تدفع الحساب!..

ثم قال أحدهما بعد الصمت الذى تلا تذوق الشراب:

- ينبغى أن لا نتذمر. كانت وجبة الظهر فراخا. وحصلت على جناح كهذا..

- لا، ليس لنا أن نشكو من شيء لقد حصلت على فخذة هكذا....

ورسمت أيديهما أحجام فرخة بنفس النسب التى يرسم بها الدينصور. ويغمزان بعينيهما.

- ألسنا أحسن حالا مما لو كنا عند الراهبات

- اى والله.. حيث نحن، لا حاجة بنا للصلوات!..

وحدد أكبرهما سنا:

- تعلمون أن السنة السوء موجودة بالمرصاد دائما..

وأيد رفيقه هذا الكلام بهزة جدية من رأسه:

- كلا، يجب ألا نتذمر..

الكتابة فى رأى خالد، هى الاصغاء والملاحظة. كان يقبس أفكاره كذلك من الشارع ومن الناس. وهو يكتب أنى كان. وينحى على نفسه باللوم فقط لأنه مراقب غريب. الا أنه طوال هذه اللحظات يخامره شعور بأنه قريب من الآخرين وانه ملكهم. وهذا ينبوع رضاه الوحيد فى مهنته. هذا الرضا ينشأ عن انسانية مفتعلة، حازمة أقل مما ينشأ عن حساسية، تعتبر الأريحية فيها أكثر من عذر.

وسأل أكبر العجوزين سنا:

- أين كنتم تلك الساعة ذاتها؟

كانت عبارة «تلك الساعة ذاتها» تعنى الساعة الحادية عشرة من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩١٨ ... وفكر الشهيد الحى، ونشف شاربيه وقال:

- فى الوحل.

أما اليوم فهما فى الغائط ولكنهما طعما فراخا على الغداء.

- أترغبون فى قدح ثان أيضا بعشرين فرنكا؟

- انكم تقترفون حماقات يا عزيزى، انكم تبذرون كثيرا..

فى هذه اللحظة دخلت مونيك المقصف، يرسم شكل قوامها تبور من الصوف الرمادى تتخلله الزرقة كأنما هو صورة قصت من احدى مجلات الزى الرفيع. تندس تحت ابطها مظلة ذات قبضة من العاج.

كانت تبتسم. وكان فمها أحمر وعيناها زرقاوين.

– هل ترغبين فى شىء ما؟ سألها خالد:

– آه كلا! ليس فى هذا المكان!

كان العجوزان الصغيران قد قفلا عائدين. وقال أحدهما وهو ماض فى طريقه:

– يا لله! ما أقبح هذا المكان.. تباً له!.

وكرر الآخر.

– نعم، قلت لكم اننى فى تلك الساعة كنت فى الوحل.

** معرفتي **
www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

6

كانت مونيك هى التى تتكلم عن الجزائر وكان خالد، أحيانا، يشك فى ألا تكون صادقة فى كلامها.

- الجزائر، لقد ضقت بها ذرعا.

- هل لك أن تسكت، انها بحاجة إليك.

وابتسم خالد لهذه الجملة التى درج على استعمالها الانبياء الممسوسون. فان هناك زمرة من الناس تظن أن الكاتب ضرورى من أجل حياة جماعة ولبقائها وهى تكافح. فالخطأ الجميل، أجل الخطأ الجميل، هو خطأ ولكنه جد جميل. ذلك أن الكتاب لم يعدلوا ابدا فى معنى التاريخ، التاريخ الذى أصبح سيدا راشدا له من العمر ما يكفيه لمعرفة السير وحده. فالكتاب شهود وظاهرات عارضة. والمرأة التى تكون جميلة هى جميلة بدون حلاقها. وعندما يعمل هذا الحلاق على تجميل شعرها فانه لا يستطيع الادعاء على أية حال، انه هو

الذى جعله ينبت. والغابة تحجب الأشجار وراءها وتكون فى وضع حسن هكذا. فالوطنى لا يصنع الوطن، لكن الوطن يتيح الوطنية للوطنيين. وما عدا هذا فانه ادعاء. وحرب المقاومة التى لا ينظر اليها من هذه الزاوية ليست الا تمرينا سهلا فى بيان الاسلوب.

– ما من انسان لا يكون ضروريا لانسان آخر يا مونيك، اللهم الا فى قمة العمل وأثناء فترة عابرة في جوهرها من فترات المسئولية المؤقتة التى يجب على المرء أن يؤديها. وما من نقطة ماء تستطيع وحدها أن تجعل الوعاء يطفح. لكى يطفح الوعاء فانه يحتاج الى عدة نقاط من الماء. هذا كل ما فى الأمر.

– لكنك تتناقض مع نفسك! لماذا ترتضى اذن بأن تكون شجرة فى الغابة؟

ولم يتردد خالد فى القول:

– انها مسألة شرف!

لكن مونيك تصر:

– والحب، ماذا تفعلون به؟

– الحب، هو شأن من شئونى.

وأخلد الى الصمت.

لم يكن هناك شيء يوقف الدم فى عروق خالد مثل هذه الانواع من التشويش. كان يبقى كالاعلام على الشانزليزيه. اثر أمطار

الصباح وهى تبدو كأنها غسيل حزين، منشور، لينشف.

وفجأة سأل خالد:

– ولكن ماذا ترومين منى، فى الواقع، يا مونيك؟

وجاء الجواب بسيطا كل البساطة:

– أنت.

7

الزمن، هذه القطعة من الفلين التى تلقى فى الجدول وتنساب مع الجدول وتتبع المجرى الرتيب فى منحدرات غير مختارة، الزمن هذه الطفولة المستنيرة بكل بصيرة الأب، الزمن هذا السافل، هذا النشال الذى ينسل بين الاصابع وبين الجفون، هذا الزمن كان فى نظر خالد بن طوبال محدثا قيما وصديقا غادرا.

لم يكن يحب الحياة . ولكنه كان يتمناها للآخرين. وكان يتعلل بانسانيته . وينتقم لنفسه ببذله. أنه كان محروما حتى من أبسط الانفعالات والمشاعر وأقلها شأنا، من المواضيع الشهرية فى كتابة الواجبات والمشاوير الى البقال ومن العملة التي يرجعها الى أمه والثلج الملاحظ من نقاء سريرته وحدها ومن تحية يبتدر بها جارا محترما ومن ظل فى أفياء الأصياف الجزائرية. أنه محروم من بنت

العم ذات النهود المزرقة ومن ابن العم الذى لا ينجح فى امتحان البكالوريا الشفوى ومن طير أبو سعد ومن بزاقة ومن الخريف ومن الحطب الذى ينتظر من يدخله الى مأواه ..

الحياة، هي أن يشيخ الانسان أى أن يتبدل . لكن خالد بن طوبال لم يكن وفيا الا لطفولته . يروى عنه أنه كان وطنيا. ربما كان هذا صحيحا وربما كان كذبا. فالسياسة تبعث فى نفسه السأم كدروس الحساب فى المدرسة الابتدائية. فقد كان جزائريا لأنه عرف نفسه جزائريا . وكان جزائريا لأنه كان جزائريا. وهو اذ يمجد مبدأ الهوية وهذا التأكيد البديهى الأبله، يحتفظ لنفسه فى مخيلته بصورة الطفل الوفى لطفولته دون أن يحمل نفسه على محمل الجد. وعندما كان يقول ساخرا من استهلالاته ومن تلك الشاعرية الغنائية التى يبحث عنها ليستر خجله، أنه عندما كان يقول: «أنها مسألة شرف» فمن المؤكد أنه كان جادا وأنه كان يضع علامات على الطريق بنية خالصة وأنه كان يبذل ما فى وسعه ليكون فى مستوى مشاعره قبل أن يكون فى مستوى أفكاره. ذلك أن الأفكار، كان يفتقر اليها . فقد كان يترك هذه الأشواط فى لعبة البنج - بونج الى هواة الكلمات المتقاطعة فى ديالكتيك مغشوش.. كان جزائريا لأن اثنين واثنين يساويان أربعة وأنه ليس هناك مع ذلك ما يثبت حقيقة هذه العملية .

كان يسأم أشد السأم شأن جميع اليتامى المحرومين، اليتامى

والمخدعون وأولاد الزنا والحزانى وهذه النفايات العائمة على سطح المجتمع، التى يجب احترامها أحيانا. ولكن الكاتب هو من يتخطى الأسوار وينتصب واقفا فى الحديقة.

قيل لخالد بن طوبال ان أشعاره كانت تقرأ فى مراكز المقاومة وفى المعتقلات. فلم يعتره من ذلك زهو ولا فرح. وانما اعتراه الخوف! الخوف الشديد. هل هو فى مستوى الرجال، فى مستوى انفجاراتهم وفى مستوى دورهم التاريخى؟ هل يعرف الخوف مثلما يخافون. هل يعرف الإستخفاف بالبطولة كما يجهلون هم أنفسهم أنهم أبطال؟ فهو ليس شيئا ليكون رجلا.. لا شىء، مطلقا، لا شىء. أما، أن يكون المرء انسانيا، فهذا هو الصعب وهذا هو الجوهرى.

الوطن لا يستظهر كأمثولة من الحساب. فهو لا يفسر ،لا يروى . والله يدع الناس وشأنهم، فيما يبدو من النقصان فى عدالته، وطريقه ويسلمهم الى انسانيتهم التي لا تكون دائما انسانية. والله يتيح للناس استخدام العبارات المفخمة.

ولكن، عندما ترحل هذه الوحوش، الوحوش المأجورة، الوحوش كلية القدرة، الوحوش اليومية، الوحوش التي لا تشبه الوحوش والتي تستفيد جميعها بدرجات متفاوتة وايم الحق، الا أنها جميعها تستفيد من الوحشية الاستعمارية. ولسوف ترحل جميع هذه الوحوش وتنصرف من هنا، جميعها، ولن تبقى فى شوارع قسطنطينية ولا فى

www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

مراكز المقاومة ولا فى المعتقلات والسجون - فاذا الأماكن العاصية المستعصية عادت حقولا والسجون أخليت ولن يبقى على حيطان شارع ايسلى وحيطان اكس - آن - بروفانسى وفى رمال الصحراء الشقراء التى يأبى القمح الأشقر أن ينبت فيها وفى الثلج الأبيض بياضا تخجل البراءة من المثول بين يديه.. ولكن عندما تنصرف هذه الوحوش، فسوف تنصرف جميعها، من هنا، ويبقى الرجال، يبقى هؤلاء الأطفال الأسطوريون، هؤلاء الأطفال الذين لم يكونوا يرون رؤية واضحة جدا الا أنهم كانوا يرون بعيدا جدا .

سوف يبقى الحب والطفل الذى لا يكون جائعا ولا يكون مقرورا ولا يكون خائفا ويكون قد صار يخشى أن لا يتذكر.

أيها السلطان المستعاد، سلطان جميع الحقوق الالهية، ان الصباح سوف يأتى وهذه الجزائر التى يشتمونها فى جميع تصرفاتها اليومية، سوف تذكرهم بأن الشقاق لا ينشأ أبدا من سوء التفاهم بل ينشأ من عدم الاعتراف وعدم الاحترام. وذات يوم سوف يكون الطقس على درجة فائقة من الجمال بحيث يغادر هؤلاء الحمقى البيت نظيفا، وينصرفون. فليذهبوا!..

***

أخذ خالد بن طوبال يعيد قراءة رسالة زوجته للمرة العاشرة. تروي وريدة فيها أنه قد مسها الضر وأن صغارها أصابهم الضر.

وريدة الظبية النفور. ومفخرة الأخير وآخر ما بقى فى الديار وآخر قلق..

وريدة، أنها الجميلة ! فهي تشبه الحسرات. وتعلم حق العلم أن خالدا هو حبها وهو مبتغاها.

وريدة التي تحلم فى اللحاق بالمقاومين، التي تحلم ان تهب قبلاتها والتى تقرأ لأطفالها أشعار والدهم ونجاوى زوجها. وريدة التي لا تعرف أن المقاومة ميسورة المنال دائما وأن الحب أمر خارج على القانون دائما. وريدة، يا لشعرها الأسمر وفمها كجوزة الطيب..

كانت تقول له : تدثر جيدا، ان البرد قارس فى المنفى.

وتقول اننا نتوصل الى قراءة أشعارك فنحن نقرأها بالرغم من كل شىء.

وكانت تضع خطا تحت عبارة «بالرغم من كل شىء».

الشاعر، أنه لا شىء، فى مرماة تاريخه فالدوار يتأتى من الشك..

***

... فى البيت، كانت تستقبله وهو عائد، قائلة بصوتها المتلعثم: انك لأحمق..

وبعد ذلك تعترف له : انني أحبك.

وهذه الجملة، خاصة هذه الجملة: سأسافر الى باريس فأوافيك

فيها لأن تعانى ألما فى قلبك..

ثم تضيف : الجزائرى لا يموت أبدا.

الطيبة، انها فن من الفنون.

«أجل انك لأحمق ان لم تبتسم».

فى الحب نبوغ. فهو ينطق بكلمات من الحبق. كأن يقول: مراد أقل سعالا هذا المساء. وكلمات الحب المألوفة فى البيت الذى يتفوه بها اذ يقول : أظن أننى نظفت بدلتك جيدا. خاصة قوله : أرح نفسك يا خالد، ديالى(١).

وعندما ينطق الحب بالعربية يمكن القول بأنه يتجاوز نفسه.

وريدة، هذه كانت الزوجة، كانت زوجته. تحترم الأغنية، ولها جسارة الصبر.

***

ولد هذا الحب فى بلاد محاربة. لأن حرب الجزائر لم تبدأ فى فاتح نوفمبر ١٩٥٤. كان هذا الحب رصينا، حازما، منتصرا كالحرب وهو كالحرب كان يبتغى السلام. هكذا نشأ منطق هذا الحب من طموحه الوحيد الى السلام..

***

كان ينظر الى وريدة فاذا بعيونهما تتفاهم. ذلك أن ما بينهما

---

(١) ديالى، أى خاصتى، ياخالدى.

كان صداقة بقدر ما كان هوى.

وكان قرب سفر خالد يجعل البيت خاليا من الأثاث.

- وهذه ، هل ألقيها فى النار، هل أحرقها أيضا؟

فيتردد خالد:

- انتظرى قليلا لأعيد قراءتها..

ولكن كلا، مستحيل! سوف تكون هناك أشياء كثيرة تجب قراءتها وهكذا راحت الأشعار تتلوى بين ألسنة اللهب. ويتوارى الشعر فى غياهب الدخان وفى الرماد. وخالد يزمجر قائلا:

- احرقى كل شيء !

كانت كل ورقة محترقة تذكر بالكرسى المقدم تحت الطاولة وبالدواة التي تزاح جانبا، وبالفكرة التي تستعصى والتي تجيء وبأثر يداعبك وبقلم يجب تحبيره وبجملة يجب حذفها وبصفحة تنزع فتدعك ويلقى بها فى السلة وبعياء وبفرح وباسم وبكنية وبالدرج الذى نقفله وبالمخطوطات التي نرتبها وبالليل وبالنهار وبالشعر، يا الهى ! بالشعر..

- احرقى كل شيء ! وبخاصة احذرى الدخان أنه يهيج الدموع فى مقلتيك..

عندما يؤدى الأمر بالشاعر الى احراق أشعاره يكون الانسان عندها فى خطر، ويكون قد أصبح جلادا بقدر ما هو ضحية. وثمة

شيء يكون قد أصابه الخلل. فالهجوم على «جماعة عصاة» أقل خطورة وأقل مغزى وان كان أكثر غدرا من الهجوم على فريق يرتل. لهذا اساءت الثورة الروسية لنفسها بانتحار ماياكوفسكى وبعزلة باسترناك الكئيبة أكثر من اساءتها فى محاكمات موسكو. وبودابست المضرجة بدمائها، بداية، كانت هي الحبر الأحمر الذى نزف من الكتاب الغاضبين. واذا كانت سيادة صياد العصافير تثير غضب أراغون فقد كان يبكى المحبين الذين انقطع الوصال بينهم بقدر ما يبكى ديزنوس وجان بريفوست. ذلك أن العجماء لا تحب العندليب. فمن الواجب أن يعرف الانسان ما ثمن وما قيمة اضطرار الكاتب أن يحرق مخطوطا بنفسه.

ان خالدا متضامن مع أولئك الذين هم على حق وهو قريب أولئك الذين هم على خطأ. ذلك أنه انسان يرتعش كبرياء، وفيه حياء. فهو رجل يرتبط بجميع الرجال. ومهما فعل المرء فانه يشترك فى المسألة من أجل الخير ومن أجل الشر، من أجل الأفضل ومن أجل الأسوأ.

– احرقى كل شيء يا رويدة.

8

فى الروايات يجعل الانسان الأمر فى حالة أحسن وأكثر جمالا. فهو اذن يغش وهذه طريقة للاعتذار آخر الأمر. وعلى هذا فان خالدا يحتمل الحرب كأنه وجع فى الدماغ. والاسبرين غير موجود يا عزيزى، الاسبرين غير موجود. فهو لا يحارب ولكنه يقاسى الحرب.

غير أن حب وريدة يعاوده. فيهدىء روعه ويشد عزيمته.

فالمحبوب يعرف أن يموت والمحب يعرف الموت كذلك.

جرس الهاتف يدق.

– كلا ! أفضل البقاء فى البيت.

لكن سيمون يلحف فى السؤال.

– يؤلمنى أن أعرف انك وحدك.

– انك لطيفة جدا، لكننى لست وحيدا.

– ماذا تفعل؟

- أنني أقاسى.

انه موجوع. ان خالد بن طوبال يلملم عالمه. فهو يعرف أن الشقاء يدوم. ويعرف أن من لا - معنى - لهم يملكون حق الكلام. ويعرف أن الحرب هي تعذيب الحرب. ويعرف أن ابنه مصاب بالسعال الديكى وان الكلمات المتقاطعة ليست قابلة للحل. ويعرف البلاغات فى الصحافة ونتائج آخر نشرة دعائية فى يده.

يعرف أنه يكاد يموت وأنه يحيا بالكاد. ولهذا السبب فانه يكتب، أنه يثأر لنفسه، ولذلك يبتسم أحيانا وعندما يبتسم لا يبقى هناك منفى ولا يبقى حمقى. فالله يدون اسمه عندئذ ويعلن عن وجوده صليبا أو هلالا فالله هو صديقه الوحيد ذلك أن خالد بن طوبال يكون عندما يكتب ابن الرحمن.

***

ينبغى لنا أن نلتقى بالرجال ونعيد طرح جميع الأمور ونعيد النظر فى كل شيء وأن نتخير كل شيء. وينبغى أن نقدم لهم شاعرا، يخاطبهم ويعمل على أن يحظى بقبولهم واستحسانهم وينال احترامهم. ولو أنها كانت متوقعة فان حرب الجزائر، حرب فرنسا، تبقى عجيبة أقسى العجب.

كانت وريدة، فى الجانب الآخر من الآفاق، ترقب المطر. فزوجها فى نظرها يشبه الحرب ويشبه المطر. وتأخذ فى تخيل صوته وتسيخ

السمع الى المائة ألف نغمة فى صمته. على حين يغط الأطفال فى نومهم سابحين فى غبطتهم. والتك - تاك فى دقات المنبه تطمس جزءا كبيرا من الأبدية. ونوبة السعال الديكى التي تنتاب مرادا وكوابيس الأحلام التي تجثم على فريد وتغاريد مالكة فى شخيرها.

يحتاج خالد بن طوبال الى شروط عديدة لكى ينام حيث كان. فهو يستطيع أن يأكل أى شيء ولكن ليس مع أى كائن كان. وهو يرضى بما قسم له، ويقبل به ولكنه لا يخضع أبدا. ومن ناحية أخرى فانه لا يعرف التذمر.

وريدة فى الجزائر ترقب المطر وفى فرنسا يحدق خالد وجها لوجه فى عيني السأم، فى سأمه نفسه.

***

بعد ظهر أحد الأيام طلب أحد الصحفيين مقابلة بن طوبال. كان هذا الصحفى مراسل جريدة يومية هامة فى سويسرا. فالتقيا فى مقهى معتم، يبعث على الاطمئنان من مقاهى الشاطىء الأيمن، فى مأمن من هومس سان - جرمان. ولم يكن خالد يحب رغبة الاطلاع المهنية فى هؤلاء الناس الذين يدسون أنوفهم فى الفيضان وجرائم القتل والسطو بنفس الدرجة من الاهتمام واللامبالاة التي ينظرون بها الى المآسى التى تحبل بها الأيام وتولد متفجرة هنا وهناك على سطح الأرض.

كان ذلك فى الخريف الأشقر. بعض العمال فى الشارع يعودون بسلمهم. وفى السماء غيوم تنزلق ولكنها ليست مخيفة. وصاحبة المقهى مستغرقة فوق كرسيها العالى، كأنها معلقة فوق الأرض، تقرأ الرواية المسلسلة فى جريدتها. وعلى الزجاج يتزحلق الذباب متحديا بمهارته جميع قوانين الجاذبية المعروفة. وثمة عاشقان لا ينفك أحدهما عن ابداء الاعجاب بالآخر. فماذا سيبقى غدا من هذا الحب؟ وبدلا من أن يفكر خالد بن طوبال بالأسئلة التي كان يطرحها عليه الصحفى فانه انصرف بكليته الى ملاحظاته.. انظر! ها قد انصرف العمال الآن. والعاشقان لا يزالان يخلدان فى عاطفتهما على الدوام..

- كيف ينبغى أن نفهم عنوان كتابكم الأخير ؟

الساعة لا تشارك. فهى تهذر كجدة عجوز، طيبة، لا تعرف قط أن تتذكر الا أيامها القديمة الحلوة..

- ما هى المكانة التي ستحظى بها اللغة الفرنسية فى جزائرالغد، فى رأيكم؟

فوق الزجاج، لا يزال الذباب يلعب لعبة النطة. وتفرغ صاحبة المقهى من مسلسلة قصتها فى عدد اليوم. وتتنهد وهى تسند بطنها وقصتها معا الى البسطة، تنهدا يمكن، من يراها، من التخمين، بأنها لم تفهم القصة، وانها لذلك يجب أن تحتفظ بفصول هذه المسلسلة..

- أهناك من يكتب بالعربية بين الكتاب الجزائريين؟

ثمة راهب يدخل المقهى ويطلب قهوة بالكريمة. السلام يفوح منه، لهذا اذن يجب أن يكون لديه. لكنه بكل أسف يحدث ضجة وهو يأكل قطعة الخبز المدهونة بالزبدة على حين يطفق الأولاد عائدين من مدارسهم وهم يحتجون على كثرة ما يطلب منهم من الواجبات ويهددون بالاضراب اذا استمرت الحال على هذا المنوال. وأحد الاقزام يعتلى اسكملة. ويبسط ممثل تجارى ضروب دعايته الخادعة ونشرات بمشاريعه المقبلة..

- أتظنون أنه لو قدر لكم أن تختاروا بين ألوان أخرى من الكفاح..

وريدة تتنزه فى حديقة من حدائق قسطنطينة فى وقت ما يكون الجبل أزرق ويتجمد الزفت..

وترى الدنيا تهتز. اذا بالأزقة العربية تستريح. وريدة، وريدة - العينين - السوداوين ! خصراها ليسا رشيقين. انها تنتظر وتعد المستقبل..

- هل يساور الكتاب الجزائريين جميعهم، هاجس ما تسمونه بـ «مأساة اللغة» كما يساوركم؟

وريدة تعرف زوجها. وتميزه. وسوف تذهب الى لقائه فى شارع العرب. وستنتقى الخرشوف وتشاهد الجوامع وتتلمس ، ثم تتلمس شارع العرب. وفى الهواء المرتعش ترى دخان الذرة التي تشوى

وهو يرسم رقصات بنفسجية.

لا ينتمى خالد بن طوبال تمام الانتماء الى الحاضر. ففى البداية كان يبذل جهودا. واليوم، فان كتل المشاكل المتراكمة هي الأقوى. وثمة شيء قد انكسر. فهو يمضى قدما الى الموت. لغيره الكلام ولغيره الغد! فبماذا يجيب هذا الصحفى؟ وبماذا يجيب قراءه؟ ذلك أن خالدا يقف على الضفة الأخرى. وهو ينفصل عن «الآخرين». الوحدة مملكته، والصمت يغدو، شيئا فشيئا حصنه.

وأبدى السويسرى :

- أنكم لا تكثرون من الكلام.

ولم يجد خالد الا هذه الكلمات الهزيلة:

- ليس لدى ما أقوله.

- ولكن لماذا تكتب اذا .

- لأمر فى غاية البساطة وهو أنني لا أعرف أن أتكلم..

ثم استأذن خالد بن طوبال بالانصراف مخلفا وراءه من جاء يحادثه وهو يتساءل اذا لم يكن قد التقى حقا بمجنون.

فى الحقيقة أنه التقى بمجنون. ذلك أن جميع الرجال هم مجانين الى حد ما. لكن التعساء فى هذا الميدان، يصلون المطلق.

9

– انك لترى أنى قد اخترت أن أكون سويا .

وفكر خالد «يا له من مسكين».

وتابع سيمون:

– ليس لى سوى قامتى.

فلم يصر خالد.

– أيها الفتى ! ماء للشرب.

ثم يضيف :

– قل لى، أنبقى طويلا بانتظار قدوم السيدة مونيك؟

يبتسم ، وتذهب ابتسامته بعيدا جدا، تعبث وتثب فى الطريق، انها تكاد تذهب الى كل مكان، أى انها لا تذهب الى أى مكان.

– ها هو الأب غليوم. أنه يكاد لا يعرفنا .

– ماذا تقول .. لقد مضى على ذلك ما يقرب من خمس عشرة سنة!.

** معرفتي ** www.books4all.net منتديات سور الأزبكية

وعلى قارعة المفترق بين شاعرين.. يحاول أحدهما المزاح:

«الواقع أن حادثا ما، لا يكون قابلا للتحليل بالنسبة لوجدانى، لا يدل على كونه بسيطا».

- يا له من مسكين برغسون هذا! لكم كان المرء يحبهم هؤلاء العلماء النفسيين - المتفذلكين.

- أنا على يقين من أنه كان طرازا شجاعا من الناس، شاعرا من الشعراء ياسيمون لعله كان شخصا مسكينا ولكنه ليس..

ميدى أيا باريس بجموعك الزاخرة. وبددى ذاتك فلن تنالى شيئا. ودانتون المسكين الذى أصابه تشنج فى عنقه..

- أيها الفتى ! انى عطشان.

- انظر ها هى مونيك قد وصلت.

يمكن القول إنها جميلة فى جماع هندامها كالايل وبقفازيها الحمراوين ومظلتها. السماء لا تمطر الا أن المظلة تليق بها تماما.

- يبدو وكأنكما تشكلان رأسا واحدا انتما الاثنان. تصوروا أننى التقيت ببيير.. ألا تتذكر بيير.. لقد علم أن خالدا فى باريس وهو يحرص أشد الحرص على رؤيته..

- لست فى باريس ولا أرغب فى رؤية أحد.

***

فى السينما، نام خالد، لأنه كان قد تناول كثيرا من السنيزانو

ولأن الفيلم يبعث فى نفسه السأم. كل ما يذكره أن مونيك سحبت يدها من يده بسرعة خاطفة فور بدء الاستراحة.

***

كل يوم يمر ينأى بهذه النباتات المغروسة فى غير مكانها، عن الابتسام. ويمر كل يوم أطول من سابقه. وكل يوم يكون أشد عبوسا. وكل يوم أكثر دراماتية.

فلان قضى نحبه وفلان عذب وفلان فقد وفلان أوقف، ثم فلان قضى نحبه وفلان عذب وفلان فقد وفلان أوقف... وهكذا دواليك.

***

وريدة لا تكتب . وريدة تكف عن الكتابة. ماذا دهاها؟ ها قد مر الاثنين والثلاثاء ولم يحمل البريد شيئا. ولا شىء فى صندوق البريد، ولا شىء على عنوان سيمون كويدج. ومع ذلك ينبغى أن يبتسم ويحلق ذقنه كل صباح ويفتح جريدته فى المطعم. ويقتل وقته وبالتالى يقتل نفسه ذاتها وعلى هذا المنوال يصرف الزمن وقتا طويلا فى كتابة سمفونية الرتابة التافهة. الطائرة خرساء فى الغيوم. والطيار، الذى يبرحه القلق، يرى الأرض تكبر. ربما يكون هذا خطأ وربما يكون نسيانا. فأنا أعرفها، انها زوجتى. تحمل مستقبلى وتنقل أمانى وتسمح بأوهامى. وقد يكون هذا نتيجة خلل فى شئون البريد. ثم أنا نفسى لا أكتب. ولكن هل يحق لى أن أكتب. أين بلغت من الأمر. لقد

قيل لى انهم جاءوا يبحثون عنى. فليكن! يبقى هذا الحب. ان العصر مسخر لافعال الايمان. والا فكل شىء يكون مقيتا، مضحكا.

ما دام ان شارع العرب باق وازقة العرب.. ألا ليت شعرى، أيضن على برسالة، رسالة صغيرة، كلمة صغيرة تفيد أن : «كل شىء على ما يرام» وتقول: «انني أحبك». وتقول: «اننا متحابان»..

ينبغى أن يتطرق الكلام الى حبر الطباعة وللبغال التى تنحدر من جبل الوحش(١) ولسماء تموز (يوليو) وللثلوج التي تزين هامات الجبال.. يا الهى لكم تجيد الذاكرة، ملاحظة الامور! وريدة تمسك عن الكتابة الى. انها تحرمنى خبزى اليومى..

– ولكن ماذا! لكن ماذا، راحت تلحق بالآخرين، جاءت تنضم الى، وتمثلنى لدى الآخرين.. ليباركك الله يا زوجتى المحبوبة... أجل، أعلم حق العلم أن أهلى سوف يرعون الأولاد..

ويبدأ خالد بن طوبال قصبته. فهو لم يشك أبدا فى الحب. فى هذا الحب الذى يهبه وفى هذا الحب الذى يلقنه. وهذا الملاك الشرير الذى له مع ذلك أجنحة زرقاء والذى يدنو منه ويوشوشه فى أذنه:

– حبك فى مأزق، هناك بين سلاسل الجبال.

هذا الملاك ينطق شعرا، وهذا يثبت أن جناحيه أزرقان...

وينشرح صدر الكاتب خالد بن طوبال. أنه يبصر زوجته وهى تؤدى أعمالا جليلة.

---

(١) جبل الذئاب المشرف على قسطنطينة.

10

عاد سيمون كويدج شيئا فشيئا كما كان. فالانسان لا يموت تماما. ولا يفر تمام الفرار من ماضيه. والجذوة مواتية والذكريات تذكيها.

كان خالد شغوفا بتلك المناقشات التي لا تنتهى فى ليالى الشتاء الطويلة حيث كان لا يعير اهتماماً لحالة مونيك العصبية، وهى التى تحرص - على الرغم من أنها تكاد تسقط من شدة النعاس - على صحبتهما فى تلك الجولات التي تعتبر سلوى المنفيين الوحيدة. يمضى فى قراءة أشعار سيمون فيحسن القاءها، مما يدعو للدهشة حقا لأنه لا يحسن الالقاء عادة ولا يتمكن من القاء قصائده نفسها أو قراءتها كما ينبغى وما كان أكثر ما يردد عبارات «بلى ولكن تذكر» أو «اسمه لا يحضرنى» أو «ذلك الانسان، ماذا حل به؟» أو «لقد شخنا تقريبا».

ذات مساء – وكان مساء عيد الميلاد – بدا كل شيء كأنما يوشك أن يبدأ من جديد وان الحياة بهيجة وان شيئا ما لم يضع.

كان خالد قد قدم هدية الى نيقول الصغيرة، عروسة جزائرية تكاد تكون تحفة، تخلب اللب بشاعريتها الحقيقية المثيرة ومحاكاتها الامينة للأصل. وقدم لمونيك منديلا للعنق صمم صوره رسام شهير لناشر كتبه. وهو منديل بالغ الجمال بلونين أخضر وأسود تمثل صوره رواياته التي ظهرت وهى على رفوف احدى المكتبات.

أما سيمون فكان نصيبه حزمة صغيرة جدا تكاد أن لا تزيد عن طول السيجارة. ولاحظت نيقول الصغيرة:

– النساء العربيات هنا، لا يرتدين مثل هذه الثياب.. لكنها جميلة رغم كل شيء. فما اسمها؟

فقال خالد:

– حرية.

ورددت الصغيرة :

– ماذا تقول؟ أورية

وأردف خالد يحدد نطقها:

– كلا بل حرية لا أورية، حرية بالحاء ألا تتمكنين من نطق الحاء؟

فحاولت الطفلة ولكن عبثا .

– وماذا تعنى أورية.

- انها تعني ليبيرتيه بالفرنسية.

- وليبيرتيه هذه تعنى ماذا؟

كان السؤال فى قدها وراح سيمون يبتسم ابتسامته التي لا تكاد ترتسم لفرط نعومتها على حين عقدت مونيك المنديل حول عنقها فظهر اسم خالد بن طوبال وعنوان كتابه الأخير واضحا كل الوضوح عند نحرها.

- اذن تعني ماذا كلمة ليبيرتيه.

- انها تعنى يا عزيزى أنه يمكننا أن ننام ساعة نشاء وأن ننشد الأغنيات التى نريدها.

وهزت نيقول رأسها جادة وبدت كأنها تشرد فى ألوان من التأملات مجهولة وهى تضم عروستها بين ذراعيها بحركة من حركات الأمومة.

- فهل تعنى كلمة ليبيرتيه أن الانسان يستطيع مص ابهامه متى أراد؟

ولم يدر خالد بما يجيب.

- ليبيرتيه، تعنى ان عروسة مثل نيقول تستطيع النوم مع عروسه حرية.

كان خالد بالطبع ينطق الكلمة كما ينبغى لها بالعربية، بالحاء.

- كلا يا كالد (لم تكن تقول خالد) من الصعب نطق كلمة ليبيرته

بالعربية. أجل أن نطقها خشن. أورية أسهل. لسوف أدعوها أورية.

وتدخل سيمون.

– بل الأحرى ان تسميها وريدة.

– بكل طيبة خاطر. وريدة كلمة أسهل. وماذا تعنى وريدة؟

وشرح خالد:

– تعنى وردة صغيرة.

فصفقت نيقول بيديها، متألقة:

– أعرف الوريدات الصغيرات، فهى تنبت فى الحديقة. ولم أر فى الحديقة أبدا أورية. أليس كذلك يا بابا؟

كان موعد نوم الصغيرة قد فات فاضجعت فى سريرها.

.***

قالت مونيك :

– أشكركم شكرا جزيلا على هذه الهدية.

ولاحظ خالد ان قبلات مونيك تضغط على خديه. وقد كان يبتعد عن الابهام ويتجنب أى اتفاق سرى وأية مسارة على انفراد.

– لنر ما قدمته لى .

وفض سيمون الحزمة بأناة متناهية دون تمزيق الورقة ولا قطع الشريط . اذا به لا يجد سوى قلم حبر عادى، لا قيمة له . ويكاد خالد يعتذر وهو يقول :

- لقد كتبت به آخر كتبى.

وهو الكتاب نفسه الذى رسمت صورة غلافه على منديل مونيك .

لم يتحقق الكاتب، الا وهو يغادر أصدقاءه، من أنه لم يتلق أية هدية .. هو الذى يؤمن كثيرا بالأب نويل...

11

كان خالد عندما يجافيه النعاس يتخيل وريدة فى حياتها الجديدة. فيحلم أحلام اليقظة وسط الملاحم. لم تكن أحلامه الا بطولة وحنانا. ومن خلال الجبال الزرقاء التى تصون سرهم، غيورة من سموهم، شاعرة برفعتهم، كان يستشف طيف زوجته وهى تعتنى بالجرحى وتواسى المحتضرين. فيصلى من أجلها ويصلى من أجل رفاقها، وخاصة أنه يصلى من أجلها.

وفى منزل الاهل كان يقال للأولاد أن باباهم سافر ليؤلف كتابا وان ماما لحقت به .

يعلم خالد ان هذه المواقف تتطلب صبرا وانه يجب الانتظار حتى ترده الاخبار. ويجب ان يضاعف حبه مرتين. وان يزداد ايمانا، وينتحل لنفسه سببا، وأنه يجب عليه أن يقاوم، خاصة يجب عليه أن يقاوم، أى ان ينتظم فى وحدته ويعمل، بل يعمل قبل كل شىء.

هكذا، كان النعاس يراوده قبيل الصباح، ولكن النور الذى لم تكن الستائر تمنعه من الولوج اليه. كان يجعل نومه متقطعا. وقد كان نورا باريسيا، أغبر اللون، مشبعا بالقير، يكاد يكون صلبا، نورا اصابه البرد فكان هو نفسه باهتا كعينى المريض.

لم يكن فى نية خالد أبدا ان يعتاد هذا النور. ولكنه تعلم تحمله . لقد كان نورا يجب اما قبوله أو رفضه. وعلى هذا فلم يكن لخالد بن طوبال الخيار لأنه هبط على مسرح جديد ليمثل رواية لم يتوقع دوره فيها.. حيطان باريس الصامتة والزفت كلون الحوت والمطعم الذى تفوح منه رائحة الزيت المقلي وعصفور الدورى الذى يقبل على مضض اعتبار اللوكسمبورج اطارا ريفيا.. بيد ان سيمون، صاحبه القديم، موجود لحسن الحظ وعادات تألفهما التي افتقدها، ها هى تعود ووجبات الطعام التي تعزيه وتفرج عنه كربه كما تؤلمه على حد سواء. ولكنها تبقى وجبات طعام عائلية رغم ذلك، حيث لا خادم مطعم تسأله هل الخدمة داخلة فى قائمة الحساب. وحيث لا توجد رائحة الزيت المقلى الذى يقلى به مرة ثم مرة تلو أخرى هكذا دواليك وحيث ترتاح من وسواس الصورة التي تلاحقك فى وحدتك كظلك فتفقدك الشهية وهي تردد على مسامعك ان فلانا اختفى وفلانا عذب وفلانا فى السجن...

مفردات غريبة تلك التي تتردد على ألسنة الناس الملاعين. أغانى

من الرؤى الإنجيلية، على حين تكون زوارق المراقبة فى نقطة رصيف الأزهار تتجول هنا وهناك وأضواء الزوارق البخارية تغمر جزيرة سان - لوى وكنيسة نوتردام تناجى الله والعشاق يتأوهون على مقربة من حمام برج سان - جاك.

هذه هي مع ذلك باريس التي تستحق قداسا، ضيعة باكورديون وشارع عام ببيت من الشعر وشبح جميل وفيرلين فى مكان ما ومدام كورى وبيجى أعظم من كاتدرائية وديسينوس وشارع السين ومن فيون الى جورج ارنو ومن رولاند الى ليو فريه، فهي مع ذلك باريس التى تستحق قداسا...

12

أصبحت باريس هي المكان الفارغ ووريدة نهاية الطريق. فالناس ليس لديهم كلهم الجسارة أو الحظ في تحديد هوية زوجاتهم ووطنهم. كان خالد يمني النفس: غدا، ستكون هناك وريدة في الانتظار. وكان هذا الأمل يصدر عن حاجة به لتحويل كل شيء الى نزعة انسانية ولإرجاع كل شيء الى مقاييس انسانية أكثر مما يصدر عن أنانية. الا أن هذا الانسان، هذا الكاتب السياسي في صميمه، لم يكن سياسيا حقا.. قالت له مونيك ذات يوم:

- اني لأعجب يا خالد من انك لم تهد قصيدة من قصائدك أو كتابا من كتبك الى زوجتك.

هل كانت مخاتلة ؟ هل كانت غيورة؟ لا أهمية لذلك.

- أنا عربي يا مونيك والحياء يمنعني من ذلك.

- انت مخطئ.

ربما كانت مونيك على صواب. فلا حاجة به للتلطيف من حدة الحرائق ولا اخماد نحيبه ولا تعميم اعترافاته. لكن خالد كان ثمرة تربية عريقة في القدم. ونحن ندعو هذا حياء ويمكن أن ندعوه فقدان الثقة أو احتراما أو ايضا حكما سابقا أو أيضا كرامة.

– هل تعلمين يا مونيك ان المحب لا يعتريه الخجل فالحب لا يخجل. بيد انني أشبه قليلا تلك النسوة في بلادي اللائي لا يستطعن تناول طعامهن علنا أمام الناس.

هل يمكن لانسان معرفة البرهان على حبه حقيقة، والبوح به وشرحه؟ ذلك أن الكلمات لا تزال تفتقر للخياة أكثر من الآذان المتعطشة للسمع. ومن ثم فالحب يحتاج الى موهبة والصمت وحده له موهبة...

كيف القول : الليل قصير ونسماته منعشة مثلك؟ كيف القول: سآتي لمعانقتك عندما يكون الصغار نياما؟ كيف القول: هذا الشعر الذي يصوغ يدا واللحظة التي تفصل الابدية والضيق الذي يليها ومنة العجماء اللامتناهية، التي أبصرت ملاكا يستيقظ فيها، مذنبا وسعيدا؟... كيف القول: أحبك. مجرد كلمة: احبك.

لا ينبغي أن نتكلم أبدا، يجب أن نصلي دائما. ولا ينبغي أن نكتب أبدا اجلالا للصمت وتهيبا من الورق الأبيض.

***

- افـهم هذا، كـمـا يحلو لك. لقـد تبـدلت مـونيك منذ وصـولك الى باريس.

كـان الثلج يتسـاقط فى رصـيف الازهار، ندفـاً خـفـيـفـا لا يعلق بالأرض ولكنه يكفى ليذكرنا بان رسم السيد اوتريو كان صحيحا. فلم يكن هذا مونتمـارتر بل الضفة اليسرى. فعندما يهطل المطر وعندما يتسـاقط الثلج. وعندما تبدو جميع الشوارع الضيقة وقد تزينت بمنظر يليق بصـورة تطبع على بطاقة بريد فـهذا هو دائمـا السيد أوتريو.

ثم أجاب خالد:

- وأنت بدورك افـهمـه كمـا يحلو لك. فلست أعبـأ به. فـأنا أجىء لأراك وأؤكد قولى اننى آتى الى رصيف الأزهار لأراك مرة أو مرتين فى الاسبوع وأجىء لارى ليسيه قسطنطينة.

ويصيح سيمون حائرا:

- أتعلم اننى رجعت الى الكتابة.

وسكب خالد لنفسه شرابا. لقد بات يحتسى الخمر كثيرا فى هذه الأيام الاخيرة.

- أجل يا خالد، بدأت بالكتابة من جديد بقلمك.

وكاد خالد أن يكون فظا.

- هل تغيرت مونيك، كما تقول، بسببى أم بسبب قلمى.

ساد الصمت وقتا قبل أن يأتى الجواب. كان جليا ان الاكاذيب بدأت طريقها الى حياته. فلم تعد الحياة والموت موجودين فى وسط عالم الأستاذ سيمون كويدج المرهق.

كان خالد لا يزال يتخيل زوجته، وريدة، زهرته، زهرته الصغيرة التي تزهر بها جميع القمم.

كذلك كان الثلج فوق جبل شيليا فى الاوراس يتساقط. بيد أنه كان هناك فى العلاء، فى ذلك العلاء الشاهق، للحب معنى.

13

لاذ ابن طوبال بروايته التي كان يكتبها ولم يسبق أن خامره نحو مهنته ما يخامره الآن من الشعور بالعرفان بل وبالحنان. لا لأنه يفرض الحقائق بحثا عن هروب لا معنى له، واذا حدث أن صار العمل نوعا من الدفاع الذاتي - دون أن يكون مخدرا - فانه مع هذا أضعف ما يكون صلة بالسعادة وأبعد عن الفرح. بيد أن هذا لم يحل دون أن يكتشف خالد لأول مرة، فى قلمه وفى أوراقه رفاقا، وان كانوا مملين، لكنهم أوفياء. وكان على درجة عظيمة من السذاجة. اذ كان يكتب:

«اننى كاتب الشئون العامة».

كانت وريدة تصبح شاهدة على أعماله ونجية أسراره فى الرسائل التى يكتب اليها دون ايداعها البريد لأنه يجهل عنوانها. أما هذه الرواية فهى لم تكن تاريخا آخر. ذلك أنه من النادر وجود كاتب، ذى

شأن، يعرف الابتكار والتخيل وبالتالى الابداع، اذا تجاوزنا حدود الصنعة، ما دام ان المعيار الوحيد لأى انتاج محترم هو فى ضرورة صدقه. ومهما فعل الروائى ليقدم بديلا عن حياته فانه فى الحقيقة لا يقص غيرها، كعالم الفيزياء الذى يتابع نفسه ويطيل تجاربه المخبرية. وهو يشبه قليلا الفقيه الذى يسهر على القانون وهو يحلم بتحسينه مدفوعا بالحاجة التي لا غنى له عنها لكى يصبح هو نفسه مشرعا.

14

كان لابد لخالد من قضاء فترة في بروفانسي، تلبية لدعوة صديق، كان فيما مضى أستاذه المفضل الذى يطلق عليه لقب «عالم الصيدلة العبقرى» لسعة علمه. وفي البروفانس عقد أواصر المعرفة مع فتى غر، ذى شاربين أغبرين وكتفين مترنحتين وعينين تتوقدان خبثا، يلقبه الناس هناك بـ «بيم - بو» حتى ليمكن القول انه قد نسى، هو نفسه أخيرا، اسمه الحقيقى. كان يقول: ما دام الناس ينادوننى «بيم - بو» فهذا يعنى أنه يجب أن أدعى «بيم - بو».

كان يعتمر قبعة أميرال بحرى، باهتة اللون تكمل العصا التي يتأبطها ما ينقص صورة الأميرال من تقاطيع. كان طوله مترا ونصف. وقد احترف «بيم - بو» عملا في شئون النقل. فهو لا يدير احدى الوكالات الغنية أو يرأس قافلة من الناقلات الضخمة، المتقنة

الصنع. لا. لا. بل ان «بيم – بو» كـان منذ نصف قـرن، يقـصـد المحطة، لاستقبال قطار مرسيليا، ليعرض خدمات عربته على بعض المسافرين النادرين الذين ينزلون البلاد. عرفه خالد عند الحلاق وهو شخصية أخرى، فخرها العظيم ينحصر في مجموعة هامة من بطاقات البريد المعلقة في حوائط صالونه يقدمها لزبائنه.

– ان زبائني لا ينسونني. آه كلا! انهم لا ينسونني. فعندي، في صالوني، تكتحل عين الانسان بجمال العالم.

كان يتعذر على الزبون حقيقة، بل ويبدو له غير معقول نسيان هذا الحلاق،بعد أن يتأمل رأسه في المرآة. ويتبين أنه ما من شيء يشبه ذلك التدرج الذي يبدأ من النقرة صاعدا حتى قمة الرأس الا تلك السلالم اللولبية في البيوت الريفية. بيد أنه كان حلاقا فاتنا وساذجا إلى حد أن الانسان قلما يكترث لما في هذه القصة من نقص. أما حلاقة الذقن فكان أمرها أكثر جدية، وأقل أمانا اذ لا مزاح مع الموسى وهي في اضطرابها بين الاحجام والاقدام.

كان «بيم – بو» يجلس فوق قاعدة تمثال يحار الانسان فيما يمكن أن يمثله. ثم يبسط أمامه علبة الدخان المليئة بأعقاب السجاير القديمة فيحلها ويفرغها ويدعكها ويأخذ في لف سجايره منها. كان ما يكتنفه من الأضواء المتكسرة التي تتسرب اليه من بين أغصان شجرة الدلب، يجعله، في جلسته، شبيها بأحد الأولياء. وعلى هذا

كان خالد يأتى فيلقاه أحيانا وتخيم بينهما فترات طويلة من الصمت. وكانت عربة «بيم – بو» عل« مقربة من الكنيسة تبسط الحول الخطير الذى أصاب دواليبها تحت أشعة شمس البروفانس كأنها تعالج مرضا روماتزميا.

وذات يوم أخذ «بيم – بو» يبثه أسراره فبدأها على النحو التالى:

– فيما مضى كان عندى حمار... يا الهى! كان هذا قبل ألمانيا بمدة طويلة.

وكلمة ألمانيا كانت تعني أيام هتلر والحرب.

– كنت أدعوه «فادا» ذلك أن حمارى كان بهيما نوعا ما. اما أنه بهيم فهذا صحيح، حقا لقد كان بهيما يا سيدى العزيز لأنه لم يكن يعرف ان الانسان يجب أن يعمل لكسب قوته. ومن ثم لم يكن الناس، فى الجنوب، كما تعلم يحبون العمل. ولطول ما عاش بيننا، هنا فى الجنوب، صار مثلنا... وهكذا عندما كنت أقول له «حا! اننا ذاهبون الى المحطة» كانت عيناه تنمان عن أشياء كثيرة. وحق الشيطان، انهما كانتا تودان النطق بالتأكيد. وكنت أصرخ فيه: «هيا يا فادا» الى المحطة! فبدون المحطة لا تحصل على «الجزر..». وهكذا كان يصبح مقداما. فقد كان يجر بقوة وكان يجر جيدا جدا. ولكنه كان يلوح عليه وكأنه خجل من مهنته. ذلك أن جده كان حصانا..

ثم يحدد «بيم – بو»

- يا سيدى العزيز، انها ليست حياة أن يكون الواحد حمارا...

ولم يكن فى وسع خالد الا أن يوافق.

- صدقنى أن فادا هذا كان رجلا مقداما. عندما سرقت مدخراتى - كنت أملك ثلاثين ألف فرنك احتفظ بها فى فراشى القشى، ثلاثين ألف فرنك فى وقت ما قبل ألمانيا - فطن الى أننى كنت حزينا، لذلك كان هو الذى يأتى لايقاظى، من أجل الذهاب إلى المحطة. فهو انسان مقدام، شهم، انى أقولها لك بصراحة...

كان شاربا «بيم - بو» يرتعشان تأثرا واقرارا بالفضل.

- يا الهى، لكم كان يجر جيدا!...

وكانت نظرات عينيه تسرح بعيدا، بعيدا جدا، الى تلك البلاد العجيبة التى تجعل الناس يبغمون كالحيوانات والحيوانات تنطق كالناس...

وقدم خالد اليه سيجارة.

- شكرا لدى سجايرى.

بحق السماء ! اخرج «بيم - بو» من جيب مستقلة، ليس لها بطانة، قبضة من أعقاب السجاير - فهذه هي سجايره هو لا سجاير الآخرين - ثم فركها وعجنها بأصابعه الغليظة التي تخالها عقدا كلها شبيهة بجذور الكرمة.

- صباح الخير، سيدى الخورى.

- صباح الخير «بيم - بو».

ومر أحد الباعة المتجولين وهو ينادى :

- من هولندا، وارد هولندا!

ويهز الحلاق ماكينة الحلاقة قائلا :

يا لها من بلاد الانغام، ليباركها الله من بلاد، هذه الفرنسا.. ومع ذلك. ومع ذلك ! ..

ومع ذلك فان فلانا قد اعتقل وفلانا قد عذب وفلانا قد اختفى...

- ثم ماذا حل بحمارك «فادا»؟

وبدا «بيم - بو» كأنه يتكدس فى حدقات عينيه:

- الحقيقة ، انه عندما وصلت ألمانيا. لم يبق هناك مسافرون ولا جزر أيضا. يا الهى لكم أصابنا الجوع!... وكان عليّ أن أذهب الى السجن..

- هل شاركت فى أعمال المقاومة يا «بيم - بو»؟

- المقاومة؟

وهكذا أثبت «بيم - بو» باستغرابه وجود أناس فى هذه الدنيا لا يلمسهم التاريخ، من قريب، ولا من بعيد.

- ربما ، من أجل السوق السوداء؟

واعتدل «بيم - بو» فى جلسته ومن علو قامة طولها مائة وخمسون سنتيمترا قال وشارباه اقتربا ينتفضان غضبا كما تقشعر الهرة

قبيل العاصفة:

- يا سيدى، لم يكن هناك جزر يباع فى السوق السوداء!

- ولكن، ماذا اقترفت اذن من ذنب يا «بيم - بو»، أتكون قد تعاونت مع العدو؟ للذهاب الى السجن يجب اقتراف جريمة ما...

- هذا صحيح يا سيدى، أنا مجرم . ذلك أنه عندما جاءت ألمانيا، لم يكن هناك ما يؤكل ، لذلك أكلت حمارى. نعم يا سيدى اننى أكلت رفيقى...

ثم نهض متثاقلا، يمشق قامته ذات المائة والخمسين سنتيمترا وقبل أن يبتعد أضاف:

- لكنني يا سيدى، أكلته وأنا أذرف الدموع.

15

سيأتى الزمن الذى ينبغى ان نحتفى فيه بنصر هؤلاء الجنود الذين لم يكونوا عسكريين نظاميين. لقد نادى خالد بن طوبال بالحرب وهو يتهيبها كالجراح الحقيقى الذى ينفر من العمليات ذات الخطورة البالغة. ومع ذلك لم يكن من حل آخر. فالقوة لا تفهم الا القوة.

***

كانت الأيام تتلو الأيام والصمت متصل بالصمت . وعصافير الدورى ينتابها السأم. وقصة خالد تتقدم. لأنه يواصل العمل فيها أينما كان. تتجمع خواطره فى بوتقة بساطتها البدائية. ثم تشق الفكرة مسارها كالنهر ومن ثم يعمل ما يساوره من شك على تساوقها مع سائر الأفكار . ذلك ان الأدب وهو علم الرياضة العقلية ذاتها يتثبت من صحته بتنقيته وبتمحيصه. فالكتابة هي رواية الواقع.

www.books4all.net ** منتديات سور الأزبكية **

والشيء الأساسي ليس في اعتقادنا باننا على حق. اذ ان الاقناع حالة من الصحو المقلق. فمن يكونوا على حق دائما لا يكونوا عقلاء دائما. وأولئك الذين لا يشكون يتمتعون بجرأة عمياء في حين ان واقعة المشي نفسها شكل من التردد.

قالت مونيك.

– قلما صادفت رجلا أشد حزنا منك. ومع ذلك فان موهبتك تبدو في الفرح.

هذه هي كلمة تطلق في محلها: الفرح!...

– الم تفكري أبدا يا بنيتي بفرح يمكن أن يكون حزينا؟ انظري! فالخريف سعيد والشتاء سعيد والموت سعيد، ولكن ليس في متناول كائن من كان ان يعرف كيف ينبغي أن يموت.

ومضى خالد في كلامه وهو يفرك أنفه كما كان يفعل كلما كانت تثير اهتمامه فكرة من أفكاره:

– لقد اخطأ، الآخر، ليس الضحك بل الابتسام هو صفة الانسان الخاصة.

ثم أضاف لنفسه :

– وصفة وريدة الخاصة.

ولتوه رأى طيفها يمر أمام ناظريه بشفتيها الورديتين وشامتيها الجميلتين فوق خدها الأيسر، ومشيتها العنيدة نحوه عندما كانت

تقول له:

- انك أحمق...

لقد رآها توا وهي وديعة، مستسلمة، مخذولة، محتفظة فى عينيها بالعاطفة التي تتلاشى والفرح الذى لابد له فى ان يغادرها وبيديها المصاغتين لاوتار السماء وشعرها كأنه غابات جبل - الوحش، وريدة تلك الأيام ذاتها، كالجنية فى ذهابها وايابها وهى ماثلة فى الذهن، وريقة صغيرة من تويج اسمها...

لم تكن مونيك غيورة، ولكنها شغوفة بالاطلاع، أو انها غيورة بقدر رغبتها فى الاطلاع. وسألت:

- هل الحب فى رأيك ، ظاهرة أدبية؟

- لم لا يكون كذلك؟

ثمة شاطيء وطفل والحميرة التي تداويها الجدة بتغطية الطفل الرضيع بقماش أحمر، وبطن مثقل بحمل جميع مصائر الدنيا والعمل المجيد يكرره الانسان واليد التي تعتذر لحاجتها الى مزيد من مساندة ذراعك والمناكب التي تزحم المناكب ومن ثم هذه الابتسامة المريضة التي لا تعبر عن المرض وانما عن الحياة التي تتحفز، هذه الابتسامة فى الوردة المحببة، المفعمة بالعتاب وبالشكران...

- أظننى سأنجب لك طفلا عما قريب...

ثم ينهض خالد وينظر الى نهر السين ورصيف الأزهار وزوارق

المراقبة المصابرة.

كان عظيما، عظيما بالغ العظمة. كان يشبه وحدته. ومن خلال صمت المشاعر الهائل وسياحة ذهنه سمعها تقول:

- اننى أحبك، يا سيد الماضى.

لم تكن مونيك تكذب.

ثمة زورق من زوارق المراقبة يطلق نداءه. كانت كواكب فرانس - سوار تزعج نهر السين.

- أننى أحبك يا سيد الماضى.

عندما قرع سيمون الجرس. كان خالد لا يزال واقفا أمام النافذة.

16

أنا مسرور اليوم، لماذا تراني مسرورا؟ أنه نصيبي. أنه فألي..
ثم يلبس فريد جواربه.. كأنك آتية من آفاق بعيدة، غير آفاقك؟ ونهر السين تبدو له أرداف يا لها من أرداف!..

– لا أتناول الا الماء القراح هكذا كان يقول لي مایاكوفسكي.

– أما أنا فنبيذ أحمر، وادعى فرلين.

– سأدعوك بول فيرفين! ومردقوش، فهل يليق بك هذا.

– أفضل العلقم.

– ولكن قل لي أي شيء!

– ان قلبي عربي، كثير الالغاز، رقيق.

أنت تهذي! فلنقدم الكرمة من بلادنا للمندولين!

– وأنت يا ياسين ماذا تريد؟

فأجاب: أريد وقتا!...

لكننى اليوم مسرور، هذا هو نصيبى. وشارع فيرو انى أعرفه وباريس الحى السادس، باريس قلبى. أيها الدكتور العزيز من عين – الصفرا ماذا حل بك؟ وشارع الآباء – القديسين والأرصفة. لقد ذهبت الى تلك الاقاصى، فصلى من أجلى ايتها الارصفة! ايها الأصدقاء القدامى أسرعوا الىّ عندما أطوف بأنشودتى فى شارع العرب، فى شارع الأفرنسيين.. ليمس أحدهم ظبيتى وأنا أغدو عندئذ خطرا. أنا الحرية. والحرية غدت أرملة بموت جميع اصدقائى من أجلها. فهل يمكن للانسان أن يبنى بارملة أحد اصدقائه؟

– تعال يا حبيبى نتحرى السهل والاغطية وكفنى...

لكننى مع ذلك مسرور.

فى الباص، منذ هنيهة، ثمة صبى ابتسم لى. كان يقول بأعلى صوته أثناء مرورنا أمام مقبرة مونتبارناس:

– ماما لماذا كتبوا على حيطان المقبرة: «ممنوع لصق الاعلانات»؟...

أنا مسرور. ربما لأن الشتاء يشرف على نهايته، وان الحرب سوف تنتهى عما قريب وان الموت سوف يموت. ربما لأن الرواية الأخيرة تتقدم تقدما حسنا، كذلك. وان القطرب سوف يرجع مرة أخرى هذا الصيف وان الشقاء ليس مؤكدا ولا أبديا...

كان تفاؤل خالد يولد من جديد فى الاشجار وينمو مع الاشجار.

ومن ثم فللألم حدوده. ثم هناك الله..

هكذا يجد الطلاب لأنفسهم، عشية الامتحان الف سبب للاعتقاد بنجاحهم الذى يخلطون بينه وبين الحظ. وفيما بعد، عندما تعلق النتيجة خالية من اسم احدهم، فانه يقرأ اللائحة المشئومة ويعيد قراءتها مائة مرة، ظانا فى امكان وقوع خطأ كأن يكون اسمه قد سقط سهوا أو نسى أو كتب خطأ. وللأسف ان الخطأ عينه يكمن فى هذا التفاؤل ويبدو الشقاء لا معنى له.

تكفينا شجرة دلب فى الريف وشاطىء ارجوانى بين كافاللو وبوجى وزيتونات ثرثارات على سفوح الاكفادو وفرح البنيات اللواتى تفوح من شعرهن رائحة المسك والحناء فى أمسيات المولد، والحنان العابر من امرأة تبتسم لك عند تقاطع عربتى مترو، ورضيع ينتظر فى عربته ريثما تخرج أمه من البقالة، فثمة شىء من هذا، من هذا الشىء المعطر، اللانهائى، يكفى لكى يبدو ما فى رأسنا من أفكار سوداء كما يطرد الذباب بظاهر اليد.

الىّ بدفقة من الشمس! لتوقد النجوم! أريد ضياء. لتوقظ جذوة القمر وليختلط كل ما فى النهار وما فى الليل بعضه ببعض! أيتها المرأة ابذلى ما فى وسعك فى لهو الامير!.. ولنكف عن ان نحمل الكلمات محمل الجد ولنتوقف عن جمع الفراش وتصنيفه وعن رسم اشارة الصليب لدى سماع نشرة الاخبار عن الطائرات التي أسقطت

ولنقل لانفسنا اخيرا اننا اذا كنا على حق فان الجار الذى يسكن قبالتنا قد لا يكون على خطأ.

لكن لا ! انها ليست مومسا يا صغيرتى، هى تحب رجلا آخر، هذه هى المسألة. لكن لا! فهو ليس كسولا، انه لا يؤمن بأسلوب النمل، هذه هى المسألة. ولكن لا، فهو ليس كافرا، هو يقول انه لا يؤمن بالله الا أن الله يؤمن به، هذه هى المسألة. ولكن لا فهو ليس «مع» وليس «ضد» وهو ليس «هذا» وليس «ذاك» فما هو الا شىء صغير، وان كل شىء فى النهار وفى الليل يختلط بعضه ببعض.

الأفكار، هذه الأشياء المخبولة! هي أكثر غباء من سمك السردين الذى لا رءوس له، فى علبة، ليست لها أبدا أبعاد المحيط، هذا السمك السردين الذى كان يحسن التجوال وكان حلى.

17

كان خالد يصحح، في جريدة صديقه، مسودتي قصيدة وقصة قدمها للنشر. وهكذا وجد نفسه في جو يحبه: هذه الرائحة التي تفوح من الفريق الذي يباشر عمله وهذا الذهاب والاياب وهذا اللغط الموجز الدقيق، وجلجلة الآلات الطابعة والانهماك في العمل الذي يبديه هذا النحل العاقل. فالهواتف والأنوار الساطعة وهذا المصعد الذي يلهث والمداعبات العابرة وفورات الغضب التي لا تترك آثاراً ووجبات الطعام الخفيفة في مطعم الجريدة، انه لعالم كأنه يتمتع باكتفاء ذاتي، يعيش خارج نطاق هذه الأحداث التي هو سبب وجودها. فهو نوع من المراكب، دائم السفر، الا أن مهمته هي العودة الى الميناء، لا ينفذ الى «غواصات» الأخبار هذه، لا الليل ولا النهار. وفيما هو جالس على مكتب صغير معفر بالغبار اذا بالهاتف

يدق فيرفع السماعة:

- يطلبونك فى هيئة التحرير.

- من الذى يطلبنى من فضلك؟

لكن السماعة علقت وينبغى القول بأن نطق خالد فى الهاتف كان بالغ السوء بحيث يثير قنوط جميع عاملات الهاتف كما أنه من جهته، يستقبح ترديد نفس الأجوبة.

دس خالد مسوداته فى جيبه واتجه الى المصعد. وفيما هو سائر فضل الصعود بطريق الدرج. فأخطأ الطريق الى حيث يريد، واذا به يجد نفسه، عند آخر الدرج، أمام سقيفة وأنوار شاحبة يشبه جوها غاية الشبه سفينة من سفن البحر. وهكذا جنح خالد الى المقصف. كان المطر ينهمر والنوافذ الزجاجية تتلهى بسلسلة متباينة من الصور الملونة، نشوانة فى كتابتها الآلية . وأنت تحس فى هؤلاء الناس وهم يأكلون المشطور (الساندويتش) شهية فرحة ووعيا بالمسئولية بالغ الوضوح لدى بعضهم. لقد كانوا بحارة حقا يمخرون العباب. والبحر ماثل حولهم يسترق السمع من نوافذ السفينة.

- سلاما، يا بنيتى! زجاجة كبيرة من البيرة. إننى عطشان. طقس قذر أليس كذلك؟

وقالت السيدة ليونى، المولجة بادارة مقصف الجريدة:

- نحن نفطن هنا الى رداءة الطقس عندما يحدث انقطاع

مفاجىء فى التيار وعندما تصادر الجريدة. أرأيت ما يجرى؟

- بالطبع، يا سيدة ليونى. فانا أقرأ أيضا جريدتكم الكنار.. لكننى اليوم مسرور. مسرور جدا.

- قل لى اذن ماذا حدث لك من أمور حسنة يا سيد خالد؟

- لا شىء، لا شىء البتة. اننى مسرور لسبب وحيد وهو اننى مسرور.

وعلت الابتسامة وجه السيدة ليونى وهى امرأة شجاعة كاحدى القديسات وقالت:

- لا يحصل الانسان منك على ما يريد من المعلومات..

ذلك انها كانت تحب الاطلاع قليلا، هذه السيدة الطيبة ليونى. لكنه قليل كثير. وكلما كان خالد يلفت نظرها بلباقة الى ذلك، تنتحل صيغة من تلك الصيغ التي تتقنها لكى تؤكد له بحكمة.

- اعذرنى ايها الشاعر، هذه طريقة من التحوير المهنى.. كان الضحك طيبا وكان له دوى حقا.

- أعرف هذا. ذكرتيه من قبل مائة مرة. وأنا لا أتكلم أبدا حتى ولا فى حضرة محامى..

كان النمل يعمل دون أن يزدرى بالصراصير، هذه الصراصير التي تعمل هي الأخرى غالب الأحيان مقدار ما يعمل النمل.

- أجل يا عزيزى، أنا عائد من تونس..

– رسمك الأخير متوازن الخطوط..

– تبا لهم. لا يسلمونني الى واحدة..

– أيتها الأم ليوني هل يمكنني أن آكل؟

– أترغب في قطعة كبيرة..

– إنها بومة، فتاة السطو، أنت المكلف بالاهتمام بها، أيها المحظوظ.

– أما أنا، اذا لم يزد راتبي فسوف أعلن افلاسي.

– ألا ترى ان الرئيس كان شديد اللهجة بعض الشيء في صحيفته؟ فلن تدخل الكنار الى الجزائر أبدا..

أيها النمل والصراصير والنحل، اذا الشتاء خشي الجوع فليس الذنب ذنبك. وإذا لم يكن للصيف الا زمن واحد فالي من ينبغي أن ترفع الشكوى؟ واذا كان العسل غاليا أفيكون غلاؤه عبثا من الأزهار؟ وهذا اللغط الهادىء الذي يتعالى هنا لا يأتي من المدينة بل يأتي من العالم بأكمله.

وكانت السيدة ليوني، تعود الى مركزها:

– قرأت أقصوصتك الأخيرة يا سيد خالد، التي تسمى: «بيم – بو».. يا الهي، لكم أعجبتني! انها بالغة البساطة، لقد ابكتني، ولكن، قل لي أهي قصة حقيقية؟

– قلت لك يا سيدة ليوني انني لن أتكلم ولا حتى بحضور الـ ..

– أعرف، أعرف، بحضور محاميك.

أمام هذه المرأة الصغيرة الطيبة، ذات الشعر الباهت وعينين كعيني العفريتة، هذه القديسة التي لا يقل عمرها عن الستين، هذه القديسة التى تحب الاطلاع قليلا وتحب الاطلاع بتودد ولطف – ذلك أنه لابد من أن يكون، على الأرض، نقيصة صغيرة، لجميع القديسين – لم يستطع خالد أمام هذه المرأة الا أن يسأل بدوره متأثرا، ومتلهيا:

– لماذا بكيت وأنت تقرئين قصة الصغير المسكين «بيم – بو»؟

– سأقول لك..

وانحنت فوق البسطة، متخلية عن المستهلكين الآخرين:

– فى أثناء الحرب، لا حربكم أنتم، وانما الحرب الأخرى – آه تبا لها، لقد وقعت حروب كثيرة حتى بات الانسان يضيع فيها ! – اذن فى أثناء الحرب، فى عام ١٩٤٣ مرض زوجى مرضا خطيرا فى مكان ما من المعدة.. ولم نعرف أبدا اذا كان هذا الشىء قرحة أم سرطانا. وفى ذلك الحين كنا نشد الحزام على بطوننا..

قالت هذا وهى تؤدى حركة لتمثيله فكادت تقلب نصف خالد على حين وضعت فوق البسطة بطنا غير مؤذ وسخى وفق المراد.

– أما الحليب فلم نكن نملكه. وبفضل الطبيب حصلت على بطاقة بلتر كل يومين. وهذا كل ما كان يستطيع تناوله. ولكننى كنت أعبد

الحليب لذلك كنت أحتفظ لنفسى بكوب كل وجبة، أوه لقد كان كوبا صغيرا جدا كنت أتناوله خفية عن جانو المسكين.

ثم ختمت حديثها:

– حسن ! صدقنى أو لا تصدقنى، يا سيد خالد، كنت فى هذا العمل بعد زواج ثلاثين عاما، أخدع زوجى للمرة الأولى!..

وتوشك الرقة أن تسرى فى جوانحهما. اذ تسكب السيدة ليونى لنفسها قدحا كبيرا من النبيذ الأحمر. ولكن هاتف المطعم يدق يطلب خالد بن طوبال الى هيئة التحرير. وكان قد نسى تماما أن هناك من ينتظره.

حينئذ. كان يجد نفسه فى رواية أخرى.

***

– ماذا تفعلين هنا؟

وأجابت مونيك وهى تنزع قفازيها وتتأمل صور الصحف المثبتة بالدبابيس على الحوائط، لا يبدو عليها أى شىء من الانزعاج.

– يا له من أسلوب لتقول لى مساء الخير. علمت من سيمون انك لابد من أن تكون فى الجريدة.

– وهو ، أين هو؟

– لقد ذهب الى بريتانيا يسوى بعض المسائل المتعلقة بمنزلنا الريفى الذى اشتريناه فى سان – لونير. حيث سيمكث ثلاثة أيام.

ورق صوت خالد وهو يبدو بعيد الغور، لا مبال، الا أنها رقة مقننة، محسوبة بوضوح. وهى لهجة كان يلجأ اليها عندما يدور حول القضايا المطروحة ليزيدها وضوحا. وليحكم حصارها وليفاجىء الأجوبة التي أعدت باتقان. كانت هذه الرقة هى الهدوء الذى يسبق مواقف الهجوم.

– هل لى أن أسأل: لماذا لم ترافقيه الى سان لونير؟

كان مهذبا الى حد لا يمكنه أن يكون غير شريف. لكن المرأة كانت ساهرة وهى التى تتقن المناورة، المرأة هذه الغشاشة الأبدية، المهيأة للحيلة، المخططة، الندابة. وكانت مونيك واثقة من نفسها. ولم تكن رباطة جأشها البادية عليها ضربا من الزهو فهى تعرف انها امرأة وهذا يكفيها. الا أنها كانت أكثر من امرأة عادية بما أنها كانت تحب. ليست متشامخة ولكنها وقحة وليست مهاجمة ولكنها عفوية. كانت تقود هواها مباشرة الى الهدف كطيار الاختبار الذى يقود محركه لاختباره أقل مما يقوده ليمثل بسرعته وانتصاره.

فهى لا تفتش عن كلماتها ولا تنمق جملها، تنظر الى خالد فى عينيه، فاجرة ولكنها صبيانية. لا تضطرب أفكارها لأية عاطفة حقيقية. كانت تملك هدوء الفكرة الثابتة. تقف فيما وراء حدود الأخلاق وفيما وراء حدود الكرامة. كانت بسيطة بساطة رغبتها.

– يا سيد الماضى، هلا منحتنى هذه الأيام الثلاثة.

لم يصفع خالد بن طوبال امرأة من قبل الا أنه فعل ذلك. لكن مونيك لم تحرك ساكنا. اكتفت بملامسة خدها ملامسة طويلة، طويلة جدا بنوع من التلذذ المازوحى(١) ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة عائمة كطفلة مبهورة :

- يا سيد الماضى ألم تر انك خاطبتنى توا بصيغة الفرد؟ غير أنها ارتدت قفازيها وهى لا تزال على هدوئها وانصرفت.

وعلى حين كان خالد مستسلما لتأملاته أعاده الى الواقع عامل الطباعة الذى يبدل صفحة الأحرف:

- سقطت الأخيرة !..

تناول خالد الجريدة ولم يلق عليها نظرة واحدة.

فى الخارج، كانت باريس عظيمة. وفى سيارة الأجرة التي كانت تقله عائدا الى فندقه أخذ خالد يردد بينه وبين نفسه:

- يا سيد الماضى، يا سيد الماضى..

***

سيد الماضى.. كان يجد فى هذه الجملة جرسا موسيقيا عجيبا وطعما غريبا من الحقيقة.

... يخال نفسه : مع سيمون فى الغابة فوق ضاحية لاميى وقسطنطينه، جالسا القرفصاء على مثلث يغمره النور. ومع سيمون

(١) masochisme حالة التلذذ بعذاب النفس، يقابلها السادية وهى حالة التلذذ بعذاب الغير «المترجم».

فى المراجعات عشية امتحان البكالوريا .

... ومع سيمون فى المرة الأولى التى تعرف فيها الى وريدة عند أصدقاء مشتركين.. وريدة الـ - غضب، الزهرة الصغيرة التى يجب أن تدوم كل صبـاح، وكل مـســاء وكل ساعـة وعلى مـر الدهور.. فالماضى، هذا الماضى كان ينقضى فى بيتى، فى منزلى وكان هذا الماضى، ماضى أنا، ووريدة التى بكت لموت أخى. ان مناديل الجيب الأولى هى أول من قدمها الىّ.

والآن ها هو شارع ريشيليو. فالشارع مستقيم، فيه عشاق. وموليير معلق على واجهة أحد البيوتات الحزينة.. ووريدة فى الساعة الخامسة. والجسد الصغير الذى لم يكن يعلو اية ساقية، والكلاب الغيورة فى المزرعة المجاورة وجبل الشيست الأزرق اللون تحت أشعة الشمس المجهدة.. أنت أحمق. انك لأحمق.. وليلة السفر الى فرنسا والدراسات فى كلية الآداب فى مونبيليه.. وفى قسطنطينة المطر ينهمر فى دخلة غنيمار والطرق تتلامع وتلصف. ثم التنفس الكتيم فى المحطة.. «السادة المسافرون باتجاه الجزائر..» ومكبرات الصوت التي تنادى دائما فى المحطات: «السادة المسافرون» النساء لا ينصرفن انهن يشيعن حلما، أحيانا. سيد الماضى، وريدة..

والآن ها هو ذا المسرح الفرنسى وأنواره المنبعثة من كرات

بيضاء أكل الدهر عليها وشرب.. وتلك النزهة على الدراجة مع سيمون ووادى حما Hamma والطريق المتعرج وبيزو وكونديه - سميندو.. والخراف على الطريق والمقهى العربى والسفافيد الصغيرة.. ثم العودة فى المساء منهكى القوى، لكنهما مسروران، يشغل ذهنيهما شاغل وحيد وهو درس الفيزياء فى الغد..

- أيها الحوذى انطلق بى فوق شعاع من القمر!..

لقد اضطر خالد أن يفكر بصوت عال ذلك أن سائق التاكسى تمتم بين شفتيه :

- هذا سكير آخر! الى أين تذهب؟

- الى ضاحية لاميى.

- الى أين؟

وابتسم خالد:

- شارع جان - بار فى الحى السادس.

والآن ها هو القصر الملكى وشارع ريفولى والكاروسيل وبعد ثانية، قوس - النصر.. سوف تقرأ لى قصائدك ذات يوم.. وبعد ذلك تجىء القبلة الأولى على طريق ستورا(١) Stara . الجبل ينحدر مسرعا نحو البحر والصيف يضحك فى كل مكان.

وقد تردد خالد طويلا. فقد كانت أيضا أولى قبلاته. ربما منذ ألفى عام، ربما منذ أكثر من ألفين، بكل تأكيد أكثر.

(١) Stara مرفأ صيد صغير يقع على مقربة من فيليبفيل.

- وريدة ستكونين زوجتي.

- هذا بديهي.

سيد الماضي.. لم يجسر على تطويقها بشدة بين ذراعيها، لقد خاف، لقد خجل. كان صغيرا وكان عظيما. إنه لأمر بالغ الخطورة أن يداعب نهدا.

والآن ها هو نهر السين، وعلى ضفته اليسرى كنيسة نوتردام. والحي اللاتيني الذي لا يغمض له جفن أبدا. والأولد - نافي وزبائنه الملتحون وشارع تورنون ومجلس الشيوخ الهادىء، كثير الأسرار..

ان سيد الماضي ليتساءل ماذا تراه يفعل في شارع فوجيرارد. فلماذا البحر ولماذا السماء ولماذا هذه المنازل التي ليست قائمة في بلاده؟ وهذه المرأة التي كانت تنظر في عينه بهدوء منذ هنيهة والتي تذكره قليلا بسيمون.. وريدة يجب أن تنام، يا الهي احمها وليكن الليل فترة راحة واجعل ألا تتخلله الصواريخ المضيئة! وقها يا الهي من البرد هي التي تصاب بالزكام لأقل طراوة تشيع حولها. ثم ها هي صورة الصغار تخطر لناظريه: مراد وفريد والأخيرة مالكة.. والمنزل وسهادهم. وكيف كانوا وهم نيام، يعدون في أحلامهم ما عندهم من البلي billes ..

- لقد وصلنا.

لكن خالدا لم يسمع كان ما يزال يسافر.

تكلم يا سيدى - العداد يعمل.

كان العداد ما يزال يدور فى الحقيقة، مثل الأقدار ومثل أفكار خالد ومثل صفحات هذه القصة التى سوف يكون على سيد الماضى أن يكتبها ذات يوم.

18

كان لبرم سيمون ألف سبب. فقد أقيم اتفاق ضمنى بينه وبين خالد لاجتناب الحديث عن مونيك ما أمكن، حتى لقد كانت نبرة الحياد تخونهما عندما يذكرانها، كان هذا ثقيلا، غير محتمل. وبصورة لا شعورية أخذ واحدهما يبتعد عن الآخر، بل كانا يفاجئان هما نفسهما بالتصرف المهذب الذى يبديه وأحدهما نحو الآخر، بهذا النوع من المجاملة المصطنعة التي تنم عن مبالغة فى اظهار السجايا الحميدة حتى تنطوى على طيبة القلب ونقاء الضمير.

كان رصيف الأزهار يزداد انحرافا شيئا فشيئا. فالذكريات تتراجع وتهرب ثم تختفى. ماتت فيه حرارة اللقاء ولم يعد الحديث يدور حول الضاحية القديمة وشارع العرب والمدينة الغضبى والتلال الرقيقة. لقد غدا الثلج شاحبا. وانداح المرء فى دوامة القلق. ان صداقة تتفتت، هى، ماض يسقط خرابا وزمن يبتلع ذاكرة. وهكذا

يوغل الانسان ممعنا فى وحدته ويزداد احساسا بالصقيع وتنضب الأيدى المصافحة من حرارة المودة. وتتلاقى النظرات ولكنها لا تتجاوب. هذا هو، الموقف المرتبك. حيث الصديق لم يعد هو الصديق. فهو يراك من خلال تأدبه.

انها لحماقة.

انها لسفالة.

انه لأمر غريب الا يكون قد صمد للتجربة الزوجية، سوى القليل من الصداقات. فكل واحد يأوى الى بيت الزوجية يطوى ذكرياته فى البوم من الصور العتيقة وتكاد الصداقة أن تكون خطأ من أخطاء الصبا واندفاعا غير مستحب، ونوعا من الاسترسال لا ذوق فيه. وهكذا عندما يتزوج الانسان لا يبقى له أصدقاء وانما تبقى له صلات يستخدمها فى حاجة يوم الاحد الى لعبة بريدج كل خمسة عشر يوما وللاحتفاء معا بسهرة رأس السنة وعيد الميلاد. والقول أن فلانا قد افتقدت رؤيته.. ولكن ما أن يتدخل الابهام والغيرة فى الأمر حتى..

***

لم تكن مونيك، من ناحيتها، تلقى سلاحها وتهدأ. فلم تبد فى يوم من الأيام فى مثل هذا الجمال ولا بمثل هذا الكمال والانوثة فقد كانت تسعى الى بغيتها بأناة النملة الهادئة. على حين كان خالد يتجنب المجيء الى رصيف الأزهار بحجة قصته التى يجب انهاؤها.

هذا جانب من الحقيقة الا أن الثرثرة فى التليفون أخذت تقل. وها هو الشتاء يقترب من نهايته مترددا دون اقتناع. أما الربيع الذى يتهيأ للقدوم فقد أصبح خالد لا يحسن استقباله منذ زمن طويل بل، على وجه التحديد، منذ أحد شهور آيار (مايو)..

***

كان يكتب :

« ... لست متأكدا من أننى أومن بالله. اننى ألوم نفسى على رجوعى اليه بدافع الحزن أكثر منى بدافع الحب. لقد جبت ارجاء أحزانى...».

كانت خطاه سريعة نحو الشيخوخة. فالعمر لا يعرف من الشعر الابيض وانما من هذه الابتسامة التي تتجمد وتنطفىء من ذاتها وهذه النظرة التي لا تكبح الحماس ولكنها تراقبه. وما حق الابكار الا الحنان الحزين فى مشهد سوف يجدك مجردا من رغبة الاطلاع. وكتب أيضا:

« ... الشيخوخة هى التمنى للآخرين...»

***

كل شىء، فى هذه الرواية يبقى على حاله: عادة الماضى هذه الحرب والمنفى. ووريدة الجميلة فوق هامة المصائر الأخرى، وصداقة تلفظ أنفاسها فى رمقها الاخير. ومونيك وتايورها من جلد

الغزال الاسمر وصدرها الصغير الماكر قليلا.

وثمة خبر يأتي كل يوم فيحرك السكين في الجرح. فلان اختفى وفلان أوقف وفلان عذب.. العقل لا يتردد ولكن القلب يترنح.

ذلك أن البلاد هي الماضي. انها الماضي قبل كل شيء. فهي الملاذ الذي يلجأ اليه في أوقات الراحة بعيدا عن الشهرة وهي أولئك الفلاحون بقبعاتهم القش الثقيلة والرجال الجائعون والرجال المغرورون والناس الذين يصفعون. وهي وباء التيفوس في سنين كسنة ٤٢ وهي شارع السير في حالة السرعة وهي الزقاق الذي يصير فيه الزفت لدنا من حرارة الشمس في شهر تموز وهي قرية شيميني الواقعة على تخوم غابة الأكفادو ومعلمها البريتوني - ايفز بالطبع - الذي كان على جانب وافر من اللطف.

لكن البلاد هي قبل كل شيء وريدة تحيط بها رعايتي وتشملها نظراتي وفي حمى ثقتي وبين ذراعي لكي ارسم في السماء طيف أسطورتها ورقتي في كل يوم. ففي حكمة الشقاء العجيبة وأمام الله وأمام الناس يصبح وطني هو وعد الغابات السعيدة والرمال الغافية والجبال المكرمة والصبية العابثين الذين يلعبون بالكعاب في شارع العرب..

19

كان لابد من أن تهب العاصفة. وجور العواصف كله يكمن فى أنها تحدث فى غير فصلها. وذلك اليوم كانت العاصفة قليلة الشأن:

- لا هم لمونيك الا أن تحدثنى عنك. وهل تعلم ما جاءت تفضى به الىّ توا؟ لا أدرى أى ضرب من الأفكار دسسته فى أحد كتبك: «ما الحياة فى نظرى الا حدث أدبى».

لم يكن للغيظ ولا حتى حدود فى حياء رجل على درجة عادية من الوضوح. ولم يتمالك خالد من أن يبتسم، ابتسامة نقية من كل سخرية، ابتسامة عابثة:

- أرجوك لا تكن وقحا فوق هذا كله!

ونهض الكاتب. فقد كان جالسا حتى ذلك الحين وراء طاولة عمله. وفجأة بدا ضجرا. وكان ضجره يجعله حزينا. وكمن يشهد مسرحية رديئة فانه كان آسفا لهذا الاخلاص الذى يغدق هباء. وفى النهاية

ترك هذه الكلمات تفلت منه:

- لقد اعتدت الاعتقاد أنك ذكى يا عزيزى سيمون.

لكنه سرعان ما انتابه غضب كتيم. فهو لم يصل بعد الى درجة الشيخوخة التامة ما دام أنه لا يزال ينفعل للاهانة اذن. وهى اهانة تنتهك حرمة صداقة يظن انها لا تنفصم أكثر مما هى فيما يختلج نفس سيمون من سوء ظن غيور. فالشك والشتيمة شبيهان بالخزف المشعور.

هكذا أخذت الخرائب تتراكم فوق الخرائب. فما من شىء اذن سوف ينجو من هذا الغرق. لا شىء ، حتى ولا صداقة لم تثلم، حتى ولا يقين ضئيل وواحة صغيرة، لا شىء.. فكل شىء كان يمنح الحاضر الحق، هذا الحاضر الملعون! ثم غمرت الكاتب موجة من المرارة قادمة من مكان سحيق. وكان الحاضر، هذا العطار يعمل حسابه، يساوم ويسرق على حساب السنين الباسمة. وهذا الحاضر، يحمى مصالحه بدافع من حاجته المستميتة للحياة على هواه.

لم يكن خالد بن طوبال يملك موهبة التاجر. فهو لا يعرف الحساب الا مع ذكرياته. وعاد خالد الى الجلوس خلف مكتبه المثقل بالمخطوطات والصحف. ثم قال بلطف متناه وهو ينزع غطاء قلمه الحبر:

- إننى لا أعتقد الآن أكثر من أى وقت مضى أن الحياة حدث

أدبى. نعم أكثر من أى وقت آخر.. اذن كن لطيفا يا عزيزى سيمون ودعنى ودعنى لأكتب الى وريدة.

ثم استدرك:

- أو اذا شئت من أجل وريدة.

كان سيمون شاحب الوجه وقد عاد الى هدوئه فلم يصر على البقاء. فخرج وهكذا انصرف وانصرفت الصداقة فى أثره.

وكان الصمت الذى خيم فى أعقاب ذلك شبيها بصمت الغابات.

20

كانت أم خالد تقول دائما لابنها: «العصافير لا تبنى أعشاشها في مهب الريح».

ذلك المساء كانت هذه الجملة تدندن فى ذاكرته. وهو يفكر بسيمون وبجميع أولئك الذين ينظمون رضاهم ورفاههم على الأقل - ان لم تكن سعادتهم - ابان الهزات الأرضية ومنعطفات التاريخ الكبرى. وهم فى هذا كثر.

التقى من جديد بمسئول نقابى، هو عبد الله صديقه ورفيقه الذى كان يقطن معه فى نفس الضاحية. ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٤. أحد الشهور التي تغمرها الشمس كأن الشمس ليست جميلة ولا هى ذات قيمة الا فى قسطنطينة! والشمس عندئذ تكون كمغامر أفلس اذ يحس بقرب انهياره يأخذه الزهو بأنه سيد عظيم كلما أصبح هذا الانهيار وشيكا. انها شمس سيرانو. فى تلك الأيام كان خالد وعبد

الله يركبان بعد الظهر بقليل الترام نفسه الذى كان يمر قبل أن يعبر جسر سيدى رشيد، أمام كازينو البلدية الذى يحميه تمثال هجومى، للاموريسيير[١] Lamoriciere وفق تمنياته فى ملابسه البرونزية الصدئة. وعلى شرفات الكازينو المستديرة، يجلس الرواد ليتذوقوا الشمس الصفراء، المسترخية ومشروباتهم المفضلة.

قال عبد الله :

- لا يعرف انهم يشربون مقبلاتهم فوق بركان.

كان هؤلاء الناس يتمطون فى جلساتهم المريحة. والشمس يمكنها أن تسطع فى الشتاء: مما يدل على أن الدنيا، فى نظر البعض يمكنها أن تكون جميلة فى شقاء الآخرين.

وأضاف عبد الله :

- عرفت حارسا فى مقبرة أصبح بديناً لكثرة ما يأكل مما تسوقه العائلات ضحية لأرواح موتاها، اطعاما للمساكين والمتسولين أيام الجمعة..

وهناك طيور تبنى أعشاشها عندما تهب الريح، وعلى هذا فالسعادة تكون فى فترة معينة من التاريخ، اهانة، تجديفا بل فرارا حقيقيا.

وتساءل خالد :

(١) Lamoriciere جنرال فرنسى ورجل سياسة. اشتهر فى فرنسا بأعماله فى الجزائر. (المترجم)

- « أين تأوى الطيور الكواسر؟..»

منذ ذلك الحين أوى عبد الله الى مكان ما فى معسكرات الاعتقال. ومع ذلك فالبلابل تغرد بالنغم المطلوب.

***

كانت الرسائل النادرة التي يتلقاها خالد من أقاربه تخلو من ذكر ما يهمه وتتشابه جميعها باشتراكها فى اغفال ذكر وريدة والصغار. أما عدم ذكر وريدة فأمر لا يزال مقبولا. ربما لا يعرفون هم أنفسهم، أى خبر عنها. ولكن لما هذا الصمت فيما يتعلق بالـ «جماعة» كما كان يقول.. وكتب خالد رسالة محمومة فتلقى بعد أيام كلمة مقتضبة من أخته تذكر فيها فحسب: «ان الأولاد بصحة جيدة جدا، واننا نفكر فيك كثيرا، وغالبا ما نتحدث عنك.. » ثم يلى هذا بعض التفاصيل.

قال خالد لنفسه حمدا لله على أن صحة الصغار جيدة فهذا هو المهم. وشأن جميع أصحاب الأمزجة القلقة كان يطمئن نفسه بسهولة كما تولت رسالة طويلة وردته من صديقه فى الريف «عالم الصيدلة العبقرى» وشاهد أعماله الأدبية وموجهها، تبديد آخر ما فى خاطره من الأفكار السوداء. والواقع أن ل... كتب يقول له : «الآن وقد أسلمت قصتك للنشر تعال الى الريف وشاهد مدى وداعة الربيع فيه. ومن ناحية أخرى فأنت كثيرا ما كنت تردد بأن بقاءك فى باريس لا يهمك..»

وطاف فى خياله وجه ل.... الجميل وعذوبة هدوئه والدعابة المستترة التي تقرأ فى عينيه الهادئتين الصافيتين . وصورة عربة المقعد ساكنة تحت شجرة الكستناء الكبيرة بالقرب من البلاطة المستديرة التي رسمت عليها ريح الشمال وشما عديد الخطوط . كان ل.. قد أصيب وهو طفل رضيع بمرض البيوليوميليت Poliomyelite الا أن هذا المرض لم يؤثر فيه الا جسديا. وكان عبير الفرح بالحياة يفوح منه فى سن الستين. وهو يقضى عيشة غنية فى وسط أسرته وكتبه وكتاباته التي كان لها وقع كبير فى دنيا التحليل الأدبى الحقيقية. ولم تكن عاهته لتمنعه من السفر والقاء المحاضرات ومتابعة تحرياته فى عالم الترجمة. ان السماء فى هذه البلاد هى التى تحمى. وأشجار الكستناء ثرثارة وأحراش الصنوبر متراخية.

ثم تخيل خالد «بيم – بو» وعربته الفارغة وشاربيه الشبيهين بشوارب رماة الامبراطورية وعمرته كأنها عمرة أميرال. وتمتم فيما بينه وبين نفسه : « فى الواقع، لماذا لا أذهب ، ليس لدى ما أفعله هنا..».

واتخذ قراره. أنه ذاهب للقاء عالم الصيدلة العبقرى».

فى مساء اليوم ذاته جلس يكتب اليه شاكرا دعوته ومنبئا بقدومه الى البروفانس قبيل نهاية الأسبوع التالى.

21

لم يدر بخلد خالد لحظة واحدة أن يغادر باريس دون رؤية سيمون مرة أخرى ودون أن يودع، هو نفسه، ماضيه وصداقته ودون أن يقول كلمة وداع لهذا الذى لا يزال رمز صفحة أدبرت من ماضيه. فلقد تحقق على ضوء الحاضر الساطع من أن كل شيء قد وضع موضع التساؤل وأنه قد يتوجب عليه اعادة التفكير بعدد من الحقائق أقرت من قبل وأن يمحص عددا من القناعات القديمة. وكان سيمون قد اغتنم موقف زوجته ليعود الى لامبالاته والى ابتعاده عن هذه الحقائق التى شغلته زمنا طويلا. لم يكن يخاتل بل يختار. ولم يكن يؤمن بشيء وهل سبق له أن آمن؟ لقد ذهبت هدرا، وهباء تلك السنوات العشرون! لقد ذهبت هباء، هباء تاما!

– أجل، انى مغادر. الثلاثاء القادم.

وامتقع لون مونيك قليلا. وسأل سيمون، متأثرا أكثر مما كان

منزعجا ومضطربا أكثر مما كان يريد أن يبدو:

- لماذا اخترت الثلاثاء بالذات؟.

كان خالد مسترخيا، مغتبطا في أن يجرى هذا اللقاء الأخير في مناخ يلزم فيه المرء حدوده دون تصادم ودون كلمات طنانة ودون تصرفات مسرحية. وعلى حين تولت سيمون سكينته المعتادة نفسها فان مونيك راحت تقدم لهما شرابا وطلبت سيجارة، وهي لا تدخن في الحالات العادية. كانت زوارق المراقبة تحيى، وهي مارة، رصيف الأزهار. وسكينة سيمون التي عادت اليه لا تخلو من راحة ما لا يعرف كنهها، لكنها مرائية، سرعان ما أنبته طيبته العميقة عليها:

- ولماذا الثلاثاء؟.

- لأمر بسيط جدا، فيوم الثلاثاء هو يوم فألي. لقد ولدت يوم الثلاثاء وتعرفت الى وريدة يوم ثلاثاء وجاءني مراد، ابني البكر يوم ثلاثاء.. وقاطعت مونيك الحديث:

- لست أعرف بأنك تتطير الى هذا الحد يا سيد بن طوبال. هذا يدهشني من رجل يعتقد بالله.

لم تكن اللهجة تنم عن أي شيء من الهجوم. الا أن خالدا لاحظ كما لاحظ سيمون هذه الكلمة غير المعتادة والتي لم تذكر من قبل «سيد بن طوبال».

- هذا صحيح يا مونيك فاني أعتقد بالله. وأنا أكتب أيضا.

واكتب روايات، الا أن ما أفضل أن أكتبه هى الأشعار.

وتنهد كمن يصطنع التعاسة ثم قال وهو يلتفت الى سيمون:

– أنت نفسك، في عملك، لديك القانون من جهة وعلم الحقوق من جهة أخرى أليس كذلك؟ والتطير، بالنسبة اليّ، هو فقه المعتقد لا أرى فيه ما يناقض اعتقادى وهو لباقة من جانبى فى الأساس لأننى أوفر به على الله، المشغول فى كثير من الأمور الأخرى، الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة...

وضحك الثلاثة معا. وهي المرة الأولى منذ بداية السهرة التي تضحك فيها مونيك دون أن تخشى تشويه حمرة شفتيها، ناسية عاطفتها الناشئة عن نبأ السفر القريب.

بما أن خالدا كان يشرب نبيذا أبيض فان مونيك كانت هى أيضا تشرب نبيذا أبيض، فهى لم تكن تحب النبيذ الأبيض ولكنها كانت تحب خالدا، وكل جرعة تجعلها ترسم ابتسامة فاتنة تحاول أن تخفيها قدر الامكان وهو ما يلقى ظلا من الاثارة الغامضة. كانت طفلة أفسدها الدلال حتى لقد غدت الحياة فى نظرها، حقيقة، ظاهرة أدبية...

كان سيمون قد نهض ليضع «الأشرطة المسجلة» واحتج خالد:

– لا، لا، أرجوك، اننى أعرف ماذا ستروى...

بدا الليل شديد الزرقة من خلال هذه الصداقة التى توشك أن

تعود فالأوهام تجد مكانا رحبا. والماضى أفضل حراس الليل.

جاءت نيقول الصغيرة، وهي ما تزال فى بيجامتها الزرقاء لتقبل والدها وتقول لخالد مساء الخير..

- هل أنت ذاهب حقا؟ اذن سأقبلك قبلة طويلة

يا سيد الماضى.

ثم ولت الأدبار..

يا لها من سيدة صغيرة، تفاحة صغيرة، زنبقة صغيرة! لقد حفظت الدرس باتقان وأحسنت القاءه. وكان الصمت الذى تلا ذلك أثقل وأمر وأعظم من صمت الغابات.

سيد الماضى!..

خلف منزلنا يقع الجبل.

أنا وصديقى كنا نصعد اليه كثيرا.

أنا، وصديقى..

كانت مونيك تترنم بهذا اللحن بعد أن أسلمت ابنتها للفراش.

وكان خالد يحب هذه الأنشودة الفرنسية النابعة من الحنان ومن الايمان الصادق بحقائق العصور القديمة. ولم ينبر لاطراء الفولكلور الفرنسى والافاضة فى تأملاته الخاصة، فرارا من كلمات نيقول الصغيرة أو تبديدا لجو الانزعاج الذى أحدثته:

- عندما يقال لى كلمة جبل فان المقاومة تتبادر الى ذهنى. وعلى

هـذا يجب اعـادة النظر فى المـعاجم وكتـابتـها بمـعانيـها الجديدة. وانى لأتسـاءل مـاذا ينتظر الله لكى يعـيد الكلمـات والأناشـيد الى مواضعها.

– منذ هنيهة، كنت تشرح لنا أنه يجب أن نوفر على الله تفاصيل الاجراءات. فـتتكلم في شيء آخـر. لكنك لم تقل لنا فى الواقع شيـئا عن روايتك المقبلة...

– لقد لقيت فى كتـابتـها مـا يكفى من العناء الى حد لا أجد مـعه مبررا لروايتها. سوف تشـتريانها كجميـع الناس. وسأقدمها باهداء لطيف، مثلها كلها.

كانت مونيك لا تزال تترنم:

الحنين الى الحب، انه مرض

لا يستطيع الطبيب له دواء...

كان سيمون يحتسى قدحه الكونياك وخـالد يغب عاطفتـه. أطفـأ سيجارته فى منفضـة السيراميك بعصبية ومرر يديه تعبثان بشعره الذى خطه المشيب من هنا وهناك. ثم قال:

– انه لأمر يفوق التصور ما لفرنسـا من مواهب وهى لا تحارب.

وأجاب سيمون بسؤال:

– هل نتقابل مرة أخرى قبل سفرك؟

– على كل حال اننى سأتلفن لك.

وطلب الكاتب من مونيك الاذن بالانسحاب. فسأله سيمون:

– هل تريد أن أوصلك. سيارتى بالباب.

– كلا، شكرا، أود التمشى قليلا.

***

مرة أخرى أجاد السيد أوتريو فى رسم شوارع باريس وسمائها ومشى خالد ينغم.

خلف منزلنا يقع الجبل.

كان نهر السين يسير مغتبطا. فهما – خالد والسين – يمخران العباب الى مصير بعيد.

باريس! يقول المرء بينه وبين نفسه إنه لا يحبها وانها كبيرة جدا وانها كثيرة الصخب ثم يتبين وهو يهم بمغادرتها، انه كان يحبها حقا، باريس هذه على الرغم من كل شىء. فلمعرفة مدينة أو قرية ونهر أو نهير يجب توفير الحد الأدنى من راحة البال. ذلك أن الشقاء هو الذى يشوه الانسان ويشغل باله ويجعله غير عادل. فلو لم يبن السجن فى مدينة فريسن Fresne لكانت مكانا جميلا. فليس وادى شيفرو Chevreux عنها ببعيد. وتحتفظ جيف على نهير ايفيت برومانطيقية لا تنضب فى أحراشها. وغابة فيل – جينس تحمى سناجيبها وطحالبها وصفارييها وغدرانها. لكن كل شىء يبقى متأثرا بوجود سجن فريسن الذى يبعد مسافة ربع ساعة بالمترو.

***

معرفتي ** www.books4all.net ** منتديات سور الأزبكية

ذات يوم من بعد الظهر، شاءت الصدفة أن يلتقى خالد بمونيك فى شارع مسيو البرانس بينما كان يتأمل كتبا فى واجهة احدى المكتبات. أكانت مجرد صدفة حقا؟ لم يكن توافق الأمور يجعل فى ذلك أى شك. القدر وحده يشارك فى الذنب هذا اليوم. واقتناع خالد بأن مونيك لم تجبر القدر افعم صدر خالد بالرضى وبفرح لم يتسع وقته لتحليله. وكانت الابتسامات تفضح ذلك. ووجد خالد نفسه يقول:

– انك جميلة يا مونيك .

كلمات، انطلقت دون قصد ودون مواربة بل ودون فائدة ترجى. فاه بها بكل بساطة، هكذا، لأن مونيك كانت جميلة فعلا ولأن موهبته فى الوصول الى التوجد لما تزل غضة تماما وعفوية.

– انك تطرينى اطراء، فلا تستمر، فقد يهطل المطر.

– ذلك اننى أحب المطر أيضا.

سرعان ما غدت باريس محببة، توزع الشباب فى سن العشرين.

– لا ، ليس فى الطرق العامة حيث تبدو كالبطاقة المكشوفة. وقد أشعر بأننى خارج توا من الليسيه، أقدم ذراعى الى محبوبتى الأولى واننى اختار واياها اسم الطفل...

كان لخالد حس مرهف بالعنصر الساخر. تصدر وساوسه فى ذلك عن احترامه لنفسه أكثر مما تصدر عن احترامه الواجب للآخرين، على الأقل فى مثل هذه المناسبات. ومن ناحية أخرى

فالآخرون لا يلزمونه بشيء كبير وانما كانت له موهبة المبالغة في ابراز ملامح المأساة فيهم، وربما كانت هذه قضية وراثية اذ أنه لم يتعود عادة الشباب اذا نظر الى كلمة الشباب من معناها المقبول في الغرب.

منذ بداية حياته في المنفى كانت حركاته لأول مرة في هذه الفترة من بعد ظهر هذا اليوم كمن يستمتع باجازته الأسبوعية. وأبدت مونيك ملاحظتها على ذلك:

- لم أرك أبدا في مثل هذا الابتسام.

- أهذا تأنيب.

- كلا ! بل هو تقرير واقع.

لم يكن للربيع شأن ما في هذا. وكان خالد يبدو كأنه طفا من أعماق بئر لزج. وفجأة شعر نحو مونيك بعرفان للجميل عظيم. لكم كان يود أن يتنزه بصحبة وريدة في هذه الشوارع التي تشكل كل بلاطة فيها مقطعا من قصيدة وكل مفترق طرق هو فصل جديد وهو منعطف للتاريخ. اذن كان يمكنه أن يمسك بيد وريدة، كما فعل حتى دون أن ينتبه، بيد مونيك. اذن لكان يمكنه أن يقول لوريدة:

- أنا غني هذا اليوم. كان ناشري لطيفا جدا معي.

وكان يمكنه أن يقول لوريدة اذن:

- أعرف عوامة على مقربة من شارع غرونيلل نلتقي فيها

بأصدقائى. فما دام الصغار هم عند أمى اليوم فلذ...

ولنضحك بقرشين يا سيدتى.

لم تكن مونيك هى التى تتأبط ذراعه. بل كان العالم السعيد.

ان باريس، بالفرنسية الصحيحة تلفظ بنام. لكن شارع سان ميشيل لا يجعلنى يا حبيبتى بالطبع أنسى شارعنا، شارع العرب. ومع ذلك ففى باريس عرب. الا أن هذا اليوم هو يوم خميس، يوم خميس، قبل أن يسطى عليه، خميس يا عزيزتى، له حيز يوم خميس كاملا، اذن تعالى...

كان خالد يبعث شخصا جديدا، طرى العود فى فرحه، ثملا من حيويته يساوره القلق بين الحين والآخر من شدة غبطته. فهو يقتنص حيزا من الزمان طول يوم من أيام الخميس ليفلت من المأساة وليتحرر من شخصه ومن شخصيته. ولكى يفر من ذلك الوسواس الدائم الذى يلازمه: «اننى أتجول على حين يفعل الآخرون... على حين ينهمك الآخرون فى .. على حين أن فلانا قد أوقف وفلانا عذب وفلانا اختفى...»

ولكن لتذهب المشاكل الى الشيطان! هذا اليوم هو يوم خميس وأيام الخميس لا تدوم الا حيزا يشغله يوم الخميس وبعد ذلك أمضى الى قفص واجباتى المفيد. أفلا يحق لكاتب حتى إن كان جزائريا، عندما ينجز كتابا، أن ينال اجازة ينعتق فيها، أن يستمتع بيوم

خميس، ويتذوق خلوده العابر؟.

مونيك جميلة جمال الخميس تفوح عبير الخميس، رائحة زنبق الوادى والخزامى.

– ما دمت غنيا ادعنى الى تناول قطعة من الحلوى.

– سأشترى لك قطعة.

كانت موهبة هذا الرجل هى السعادة، أى الحياة، الحياة التي لا ترفض شيئا ولا تمنع شيئا عن أحد. فعندما كان خالد ابن طوبال يبتسم فانه كان يمثل برنامج وجود. فهو يحول كل شىء يخطر أمام أنظاره الى شعر. وكان قلبه كثير المواهب يضع الأعاجيب، يا وريدة لسوف أقدم اليك زمن الكرز عندما يكون زمن الرمان قد أتاح زمن الرياض المعتقة.

الشعر يحيط به من كل جهة، ويغمره من كل جهة. أيها السائق امض بى فوق شعاع من القمر!..

– بماذا تفكر؟

– عندما أكون مسرورا فاننى لا أفكر.

وخرجا من دكان الحلوانى.

سنتجنب اللوكسمبورج لأننى لا أحب الأزهار السجينة.

كان خالد يسير مسرعا جدا كما لو كان هناك هدف ما قد حدد له أوان لقاء ما، كان ينتظره فى نهاية يوم خميس أزرق.

وسألت مونيك:

– ما رأيك فى الذهاب الى حديقة النبات؟.

– أنت مجنونة يا خميسى الصغير! انك مجنونة. فأنت تعرضين علىّ أن أكون مشهدا فى معسكر للاعتقال...

– ولكن، الى أين نذهب اذن؟

– حيثما كان، وخاصة لا الى أى مكان.

وشدت مونيك على ذراع خالد أكثر من ذى قبل. وكانت عيناها الزرقاوان زرقة صافية سعيدتين لكنهما رزينتان. ولم يكن خالد بالنسبة لها برهة عابرة فهو ليس يوم خميس، يملأ حيز يوم الخميس. وكانت تتطهر فى الأحزان التى تبدأ. وكان للحب اسم. ولم يكن أدبيا ولم تكن السعادة ترفا ولا وطرا يقضى. وخيبة الأمل سوف لا تكون مانعا.

كان، هذا، بالتأكيد، عبث أطفال، بل كان سعيا وراء عبث الأطفال، وبحثا عن كلمات لا معنى لها وتطمين متغطرس. وكما لا يتعرف المرء على شخصه فى صورة من أيام الثانوية فان خالدا كان يعجب من أنه يضحك ومن أنه يرى الغيوم فوق أسوار كنيسة سان – سلبيس بمصطنع الحركات المسلية. ويعجب من طاقته الحياتية الخاصة. لكن حماس اللحظة هذا لم يخدعه. ان صفاء بصيرته يربكه دائما. وغالبا ما كان يلعن هذا الوضوح. وجذله يشبه تلك الفتاة

سندريون التى كان يجب عليها أن تعود الى البيت قبل منتصف الليل. لقد كان لتفاؤله حيز عمل ضيق هو استقلال ذاتى فى لا مبالاة محدودة.

وفجأة سأل :

- أين أوقفت سيارتك؟.

- فى شارع ميديسين، لماذا؟.

- لأن يوم الخميس قد انتهى يا مونيك. وأنا لم أنجز واجبات الغد بعد. ولم أحفظ دروسى..

- ما عليك غدا الا أن تتنزه عوضا عن الذهاب الى المدرسة.

- مستحيل.

- أتحب المدرسة الى هذا الحد يا خالد؟.

- كلا ولكننى لا أريد علامة الصفر فى السلوك. واعترفى بأن هذا

- فى مثل سنى لا يكون جادا.

22

كـان لابد من ألا يسـتـمـر الربيع طـويلا. عـاد المطر يـهـجـره وهو غاضب لأنه وجد مـن يحتل مكانـه، غاضب كـأنه من تلك الشـخـصيات الوضيعة الخبيثة، التي لا تحتمل فى سنى الكهولة مشـهد الشباب. وعـادت باريس كمـا كـانت باريسـا، ماردا، مثـقـلا بلوحـاته الشـهـباء وبغـمـه الخـاص. وعندمـا تمطر سـمـاء باريس تـعـود شـوارع الحى اللاتينى القهقرى الى العصور الوسطى، عصور وسطى كان يجب ألا تفارقه ولم يكن منظر السيارات المتقاطرة واحدة تلو أخرى، كصف الهنود الحـمـر، على جوانب الأرصـفـة، وقـد غـاضت عـجـلاتهـا فى السـواقى، ليبدل من طبيـعـة مـعالـم العصور الوسطى فى هذا الحى. وبالنسبة لباريس لا يدوم الربيع أيضا الا حيز يوم من أيام الخميس.

وفى يوم الجمعة اتصل سيمون بخالد هاتفيا:

- كيف حالك؟

- مثل باريس.

- مـاذا ستـفعل غدا ويوم الاحـد؟ أمـا زلت على نيـة السـفـر يوم الثلاثاء كذلك.

- نعم لم يتبدل شىء، سأسافر يوم الثلاثاء.

- تعال اذن اقض عطلتك الاسبوعية عندنا. فنيقول لا تنفك تطلبك انهـا لا تريدك أن تسـافـر قبل أن تنـهى لهـا قـصـة السنجـاب الأزرق الذى كان يبغى الحصـول على عجلة سكوتر فمن أين اقـتـبست هذه الفكرة؟.

- انها قـصـة مسلسلة كنت اخترعـها لأطفالى مـسـاء كل يوم. وهم مع ذلك لا يعرفون نهايتها أيضا.

- هالو! هالو

خـالد يحلم بـالصـغـار فى أسـرتهم الصـغـيـرة وهم يلعـبون لعبـة المركب. ولعبة المركب هذه تقوم على أن يدس الانسـان رأسه تحت الملاءة. أحـو! أحو! انتـبـهوا! يا أولاد، أنا الريح، أو الشـتـاء، اقـفلوا نوافذ المركب. احو! احو! فينبعث الضحك تحت الملاءة.

ومن حسن الحظ أن الدموع لا ترى فى الهاتف.

- هالو! سيمون؟.

- نعم، أين ذهبت؟.

- ذهبت أغلق النوافذ.

- ماذا؟.

- ذهبت لاغلاق النوافذ حتى لا يدخل الريح الى المركب.

- الى المركب، فهل أنت ثمل؟

- كلا لم أشرب أبدا. ولكن لكى يعتقد المرء بنوافذ مركب وهو فى غرفة بفندق. يجب أن يعتقد أيضا بالسناجيب الزرقاء التي تروم شراء عجلة سكوتر.. أوافق على الحضور غدا مساء لكى أنهى قصتى لنيقول.

لا أدرى فى أية لحظة وعند أى مقطع شك خالد فجأة فى أن مونيك تمسك بسماعة أخرى تسترق السمع. ربما كان ذلك تنفسا غير ملحوظ، أو بعد لحظات الصمت الطويلة أو القصيرة أو لهجة قليلة الوضوح.. باختصار جميع هذه العلامات الغامضة التي لا يعبر عنها ولا يمكن أن تراقب والتى مع ذلك تؤكد وجودا ما.

- حسنا، إننى أترككم الآن.. وألح على صيغة الجمع أنتم.

- لماذا تخاطبنى قائلا: والآن أترككم، فانك تكلمنى الآن بصيغة الجمع.

- اعذرنى، انها زلة لسان. الى الغد.

وعلق الهاتف مكانه وهو يبتسم. لكن المطر لم يكن يبتسم. فهو يكاد لا يكون مطرا حقيقيا. بل انه غم يتناثر فى ألف قطعة لا بل أنه طحين من الضجر.

وتذكر خالد أن ناشر كتبه ينتظر فبادر الى ارتداء معطفه وتوجه الى سان جرمان.

كانت رؤية لويس لابورت توحى مباشرة أنه رئيس، ربان سفينة. أولا بسبب هذا السكون الذى يحيط نفسه به فى مقر قيادته. فمكتبه يشرف على جميع المكاتب الأخرى. ويعزله ما يشبه الظل الأبدى عن مشاغله وعن زواره كما لو كان هذا النور الخافت المبطن يساعده على أن يكون أكثر قدرة على التفكير وعلى المراقبة.

- اننى مسرور لرؤيتك يا عزيزى.

لم تكن هذه الصيغة مجرد صيغة من صيغ اللباقة التي يستعملها رجل ذو حسب ومهذب وهو يفكر فى المشهد الذى رآه فى سهرة الأمس أو فى الاستقبال الذى سيقيمه فى سهرة اليوم ولم يكن السيد لابورت قائدا لفرقة هزلية. لقد كان منغمسا كلية فى عمله. وعلى العكس كان يبدو أن الهاتف وهو يقاطعه فى منتصف جمله يزعجه كثيرا. ولم يكن ينفصل عن أنسه. وكان صوته رقيقا، حارا، خافتا. وعندما كان يبدو بأنه يبحث عن كلماته فانه كان يفعل ذلك لاعطائها الوجه الذى يبتغيه ولتحميلها المعنى الذى يريده أكثر منه بدافع التردد.

فالسيد لويس لابورت - هكذا توجد أسماء لا يستطيع المرء فيها فصل الاسم عن الكنية - لا يحب المقدمات ولا الديباجات للدخول

فى الموضوع. شعاره: «الأمن يكمن فى السرعة» لذلك فهو يدخل حالا فى لب الموضوع. ولم يكن هذا فظاظة منه لكنه فى البداية صدم خالدا الذى عودته بعض السجايا المتأصلة فيه ضرورة أن يوضع فى مناخ الحديث قبل الخوض فيه. فالمناقشة كلمة ليست عربية. والافرنسيون يسمونها مراوغة أى: «الدوران حول الاناء» الا أنها ببساطة طريقة شرقية لتبديد الارتباك.

وبعد أن ينهي حديثه - ذلك أن لويس لابورت يتكلم الأول دائما - فهو السلطة الداعية - يدخل ابهامى يديه في طيات صديريته وبعد أن يسند ظهره الى مؤخرة مقعده، يكون لسان حاله يقول عندئذ: «الآن جاء دورك». والأمر الغريب بالنسبة لناشر كبير مثله هو أن لويس لابورت كان يقرأ المخطوطات التي تقدم اليه. وهكذا فالمؤلف يعلم حق العلم أنه اذ يكتفى بتقليب بعض الصفحات هنا وهناك فذلك لاستكمال نظرة تنطلق من تقرير نتيجة القراءة.

- اننى أحببت كتابك. وسوف لا أفضى اليك بما أعتقده فيه من حسن. أنت تعرف صناعته قدر ما أعرفها ولكن.. انه بالتأكيد صالح للنشر، صالح جدا للنشر.. ولكن.. اذا كنت لا ترغب فى تنقيح مخطوطك فأنا، على كل حال سأطبعه كما هو.. (ثم يقرأ حيثما اتفق): .. والان انك تجعل قارئك يا عزيزى، يفكر عشر مرات فى صفحة واحدة.. وهذا كثير جدا.. اليك هذه الجملة مثلا، إنها غير

مفيدة ما دمت قد عبرت عنها على نحو آخر وبصورة أفضل في بداية الفصل.. (وبحركة من يده): أوه، انها تفاصيل صغيرة، ولكن.. أكرر عليك انني أحب ما صغت. ان ما تفيض به قريحتك من بديع وصور عربية (ورسم بيده، بحركة كبيرة، خطوطا عربية) أنت كاتب، ليس في هذا شك، أنت شاعر شرقي.. تكاد أن تكون في غير زمانك.. لا، لا، ليس في هذا ما يشين اذ أن ما هو مقبول اليوم ليس الأحسن دوما. ولكن افهمني، يجب النظر بعين الاعتبار الى أذواق القراء.. لا أن يكون المرء عبدهم ولكن على كل حال، كيف أعبر لك عن ذلك انك تنسج على منوال ديبوسي Debussy على حين أن العصر يسير بحق أو بغير حق على منحى بيير بوليز Pierre Boulez .. ومع ذلك فأنا أقولها لك كصديق.

ثم يعدل السيد لويس لابورت من قامته: وهذا يعني على الأرجح أن المحادثة قد انتهت.

ومن خلال جميع عبارات «لكن» و «مع ذلك» و «الا أن» و «بيد أن» يتبين المؤلف فيما يتعلق به شخصيا انه لم يقل شيئا ذا بال، بل أنه لم يفطن الى أنه جاء يطلب مالا.

أفظع الأمور أن عبارات «لكن» و«مع أن» و«الا أن» و«بيد أن» مع هذا الربان المهيب، الواضح قدر ما هو فاتن، تكاد دائما على حق.

– اعمل بجد في الجنوب وزودنا بأخبارك.

** معربي ** www.books4all.net منتديات سور الأزبكية

ثم امتدت يد عريضة وابتسامة عريضة:

حظ سعيد يا بني خالد.

قبلت جملة يا «بني خالد» دون أبوة ودون دالة.

ثم وجد المؤلف نفسه يستقبل الممرات للخروج. وفكر.

- كيف يطلب المال من ناشر يدعو المؤلف باسمه الأول؟..

23

الاحد. السماء ثقيلة أكثر من أى يوم مضى، ثقيلة كهذه المراكب العمياء المحملة بالبضائع، التي ترسل زفرة غريبة وهى تمر أمام رصيف الأزهار. وتبدو كنيسة نوتردام منهكة واللبلاب يتدلى عليها تدلى اليائس. ويكاد الطقس أن يكون باردا. على حين أنه منذ أيام قليلة كان الخروج بالصديرى ممكنا. وفى الهواء تفوح رائحة التعاسة والسيارات الموجودة، هى خاصة، سيارات الأجرة. والزبائن يوجدون خاصة، عند بائعى النبيذ. ويستهل العمل اليومى فى فترة ما بعد الظهر. وتجار الكستناء هم وحدهم الذين لا وجود لهم. وترى الصحف على شبكات الحديد فى مداخل المترو، معلقة كالغسيل الوسخ المبتل. ونهر السين كأنه حنش كبير.

ان بائعات رصيف الأزهار. لا يجدن خلف مستشفى ديو ملاذا كافيا. ويشترى خالد باقة من الورد وما كان له أن يشترى ورودا ولا

يبيع ورودا ولا يدفع ثمن الورود. فهى حمراء كفم وريدة التى أعطتها اسمها بيضاء كعاطفتها. كان خالد يحب الورود ولم يكن لحساسيته الفنية دخل فى هذا الحب. كان يحب الورود لأنه يعتقد بالمعجزات ولأن الورود هى معجزات. وعلى هذا النحو كان يفهم الريح التى تمشق الغابات ورقصة الفلامنكو التي يرقصها الكلاب فى فناء الدوار وثرثرة البحر وهو الذى لا يفقه الموسيقى وهو الذى كانت الموسيقى تبعث فى نفسه الضجر. لقد كان روحا بسيطا، صورة من آفاق بلاده البدائية.

وفيما هو سائر طفق خالد يفكر بما قاله له ناشره بالأمس.. أنت تنسج على غرار ديبوسى على حين يسير العصر، خطأ كان أم صواباً، على منوال بيير بوليز.. لم يكن يعرف مؤلفات أى من هذين الموسيقيين. لكنه بدافع قبلى فضل الأول على الثانى لأن الأول ينتمى الى الماضى والثانى معاصر. كما ينبغى له الاقرار بأن للفظة ديبوسى من الناحية الصوتية البحتة جرسا موسيقيا أفضل من لفظة بوليز.. وأخيرا ربما كان هذا الأمر حقيقياً : يا سيد الماضي..

المطر ينهمر. وخالد يأمل فى العودة للقاء وريدة، يلقاها غدا، يلقاها قريبا، ويلقاها كما كانت بالأمس. أيكون هذا اذن من قبيل التفكير فى المستقبل؟ كلا. فالمستقبل، أنه من أجل الاخرين ومن أجل الآخرين يناديه خالد ويرجوه ويتوسل اليه الا يتأخر كثيرا وألا

يتباطأ على طريق التاريخ الغاضب، المضرج بالدماء. لكى ترجع الأكتاف المنحنية الى استقامتها ويتحقق حلم ايلوارد: «حلمت ببلاد يكون فيها للقمح قلب رحيم..» ولكى يعود للحرية حق ممارستها المشترك بين الناس، وحتى لا تكون العدالة أمرا خارجا على القانون! فهو من جهته يتمنى هذا الغد، يتمنى هذا الـ .. عما قريب من أجل أن يتحقق من حبه الأول ولكي ينزع أوراق الرزنامة ورقة، ورقة، مبتدئا من آخرها، ولكى يؤدى فريضة الحق ويلقى نظرة عجلى على ألبوم الأسرة ولكى لا يعرف شيئا ولا يكون قد عرف شيئا أبدا.

***

كانت الكآبة تزيد مونيك رونقا. فالفرح لا يعرف الفروق الطفيفة الا أن مونيك، بينهم الثلاثة، كانت أكثرهم استرخاء. فى حين لا ينفك كل من خالد وسيمون عن مراقبة الآخر، خاصة خلال لحظات صمتها، الطويلة حتى لكأنها الخلود، كانا يغوصان فيها كما يمور الانسان فى رمال متحركة، فلا تتوصل خطب الصغيرة نيقول، الخلابة، ببنطلونها المخملى الأزرق والبوليرو الأصفر، الى التسرية عنهم أبدا.

تقبلت سيدة المنزل الورود بعاطفة صادقة. فقد تناولتها مونيك كما لو أنها ما كانت الا أجلها وكأنها لم تنبت الا من أجلها. وحاول خالد المزاح.

- عندما يصيبها صداع أعطيها أسبرين.

ولم يجد المزاح صدى.

وفى لحظة من اللحظات، تخيلت مونيك أسى ما قد يصيب خالدا بعد ثمان وأربعين ساعة من سفره. ربما يكون فيه ثأر لها أو أنها بالأحرى تفيد منه عزاء، لا جدوى منه الا أنه عزاء لطيف. لكنها تتأكد من دورها الاحتياطي. اذا بالمجون الذى سادها منذ هنيهة يتبدد. فتتخلى عن الكفاح كمن يسدل الستائر حتى يتجنب أن يرى أو يرى. لا أنها تقبع خلف هذه الستائر قريبة من النافذة وقد وضعت جبينها على الزجاج لسماع الخطوات التى تبتعد.

شاحبة الوجه. لم تتخضب. يطالعك وجهها بمشهد من الحزن الشديد الفارغ، الصامت، مثلما يظهر الليل، فى ضوء القمر، حقلا من الثلج.

هكذا توجد ألوان من الحب تبقى محترمة وإن كانت خارج نطاق الأخلاق. يفوح منها عبير الخطيئة، لكن تقديرها يبقى كغيرها، فالخطأ يجد هنا نبله بل وحتى يكاد أن يجد شرعيته. وهذا ما كان يمزق نياط القلب.

وجاء الحظ الحسن بأصدقاء لسيمون قبيل الأصيل. وهذا ما دعا خالداً الى شكر العناية الالهية على هذه التلهية وهو الذى لا يحب عادة المجهولين لأن حياءه، عندئذ، يشله. لذلك بدا أشد تألقا وأكثر

تحببا من أى يوم مضى فى حياته وهو يروى الملح الطريفة ويتلاعب بالألفاظ التي تنجده ليهرب من النظرات التي تتلاقى والتي لا يفتش بعضها عن بعض، بل كان هو الذى أصر على هؤلاء الأغراب الا ينصرفوا ساعة العشاء.

كان يعرف أن رصيف الأزهار لا يجاوب وانه بئس الجواب الذى كان يجاوبه، وانه ربما يكون أخطأ الرقم المطلوب، فليشوش السمع اذن قدر المستطاع.

تذكر «الأخبار» التي لا يمكن تجنبها بضوضاء هذه الأيام. ويتوافق سيىء القصد يقدب الراديو أخباره فى أوقات الطعام لهذا شرح خالد رأيه فى سبب فقده لشهية الأكل دائما.

وسألته امرأة شابة:

– هل تغادر باريس بلا أسف.

كانت مونيك قد ثبتت نظراتها على خالد تنتظر جوابه.

– اننى لا أحب باريس.

وتدخل سيمون:

– اذن لماذا قدمت اليها؟.

– لأن باريس عظيمة ولأنه كان لى أصدقاء فيها.

كانت هذه الصيغة فى الماضى الناقص مريعة. وتابع قوله:

– وأنا، من جهة أخرى، لا أفهم هذه المدينة. انى أعتقد فى

بطاقات البريد أكثر من اعتقادى فى بطاقات الظروف الطارئة وبطاقات الزيارة. ومن ثم على الأخص..

لم يتم جملته ولكن نقاط التوقف تتابعت فى ذاكرة سيمون، وأعادت المرأة الشابة التجربة التي بدأتها منذ هنيهة:

– أين تحب أن تقيم ما دمت لا تستطيع العودة الى الجزائر.

كان جواب خالد قد يبدو متغطرسا، متبجحا، لولا أن اللهجة التى نطقه بها أضفت عليه رزانة لا تشوبها شائبة من الخيلاء:

– أنا أسكن فى الوقت الحاضر فى كتبى. صدقينى يا سيدتى اننى أدفع ثمن مقامى غاليا، غاليا جدا.

ولم تتمالك مونيك التى مكثت صامتة حتى ذلك الحين من أن تسأل:

– هل تعود الى باريس بين الحين والآخر؟.

***

عندما أعود لرؤية باريس فان وريدة سترافقنى. عندئذ لا يكون الصباح شاحبا وستتعرف على عصافير الدورى وسيسجع الحمام لحبى ولا يكون نهر السين أفعى ضخمة. وسوف لا تعلن عندها محطة الاذاعة والتليفزيون الفرنسية نتائج العمليات الستراتيجية المفجعة. وسوف لا تمزق سيارات البوليس ستار الليل وحرمته الا للتفتيش عن مجرمين حقيقيين. وتكون حيطان المنازل قد استعادت

حرمتها فى مهمة الحماية المنوطة بها ولا تنوب مناب رقوق الغزلان لتسجيل شعارات التاريخ ورفعها. وتأتى أيام الكرز بعد أيام الرمان ولا يخاطب انسان، انسانا آخر بصيغة المفرد. ولن يقرأ الخوف مرتسما فى عينى أى انسان. وسترافقنى وريدة. وتشرق الابتسامات طبيعيا ولا تكون باريس حرة الا عندما تصبح الجزائر حرة.

وريدة، زهرتى الصغيرة، سترافقنى ويستطيع فرلين أن يشرب شرابه المفضل من الابسانت ويأكل بودلير أكلته من البطاطا المقلية دون أن يوقعا طلبا بذلك.

سترافقنى وريدة ونعيد الى رصيف الأزهار نضرته!..

***

وألحت مونيك: فمازلت حتى الآن لم تجبنى على سؤالى. هل تعود يوما ما الى باريس؟.

وقال سيمون وهو ثائر الأعصاب الا أنه يحاول امتلاك زمام نفسه:

- وهل يعرف هذا هو نفسه؟.

- تعلمين يا مونيك، اننى آمل ألا تستمر الحرب الى ما لا نهاية.

ولم يكن هذا الجواب دقيقا. الا أنه كان يكفى بحد ذاته.

- وعلى العكس ان ما أود تأكيده لك هو اننى سأعود الى بلادى.

ثم أضاف بعد لحظة من الصمت:

- حيا أو ميتا.

وانفجر ضاحكا.

- لماذا تضحك؟

- التعبير هو الذى يضحكنى.

ثم تطرق الحديث الى شىء آخر أى الى لا شىء، على الضبط. تناول عزف براسينز فى أوليمبيا وآخر أزمة فى الحكم وآخر تقليعة لبريجيت باردو والكنار الذى طار هاربا وحادثة سيارة وامرأة صاحبة عقار، مزعجة ككل شىء فى سان - لونير، وواجهة سينما مطلوب تغييرها (زوج المرأة الشابة مهندس معمارى) وجورج بيدولت الذى كان يشرب النبيذ الأحمر، والأميرة المسكينة مارغريت التي لا تستطيع أن تحيا قصة حبها مع الكابتن تاونسند، الذى ينقل بحرص شديد من مكان الى مكان كخزنة الذهب..

***

اقتربت مونيك، بعد غياب قليل وضعت خلالها ابنتها فى السرير، من خالد وقالت له:

- يا سيد الماضى، هل تفى بوعدك؟.

- عادة، نعم.

اذن عليك ان تنسحب معتذرا. فنيقول بانتظارك لتعرف نهاية روايتك عن السنجاب الصغير الأزرق الذى يريد دراجة سكوتر.

نهض خالد وصعد الى الطابق الأول حيث تقع غرفة الشيطانة.

لحقت به مونيك وهذا ما أغاظه. لكنها على كل حال كانت فى منزلها وربما كان العمل على أن تلاحظ هذا الاستياء يثقل مواجهة بينهما، يتجنبها خالد.

***

- وماذا ؟.

يسأل الأطفال «ماذا» دائما قبل أن يبدأ الراوى حتى بسرد حكايته. ولم يكن خالد يعرف أين وصل فى القصة. الا أن نيقول مازالت تتذكر.

- توقفت عندما بدأ السنجاب الصغير يجتهد فى المدرسة ليحصل من أبيه على دراجة سكوتر.

على حين جثت مونيك على ركبتيها فى طرف السرير جلس خالد على مقربة من وجه الفتاة. كانت لها عينا أمها وابتسامة أبيها التى تكاد لدقتها لا ترى وبدأ:

عندئذ قال الوالد لابنه السنجاب الصغير: «أنت الأول فى صفك، أنت سنجاب صغير أزرق حقيقى. فبماذا ترغب. مكافأة لك؟» فأجابه السنجاب الأزرق الصغير: «لقد سبق لى أن قلت لك عن رغبتى. اريد دراجة سكوتر جميلة».

« - لكنك لا تستطيع ركوب الدراجة السكوتر.

« – أتعلم .

« – ان ركوب الدراجة السكوتر صعب جدا .

« – قلت لك أننى سأتعلم، لقد تعلمت جيدا جداول الضرب.

« – فأخذ السنجاب الأب يفرك ذقنه :

« – ان صغار السناجب الزرق لم تخلق لركوب دراجات السكوتر. لقد خلقت للقفز على الأغصان.

« لكن صاحبنا كان لديه جواب على كل شىء.

« – وصغار السناجب الزرق لم تولد كذلك لتتعلم جداول الضرب.

« فعاد الأب السنجاب الى فرك ذقنه وأشعل غليونه وقال:

« – ألا تفضل هارمونيكا؟.

« – لماذا عزف الموسيقى ما دام جارنا فى الطابق الأعلى عندليبا .

« – هل تريد أن اشترى لك ساعة؟ ساعة جميلة من ذهب.

« – ألكى أعرف الوقت؟ لست بحاجة الى ساعة فالشمس والظل يكفياننى.

« أم اشترى لك أقلاما ملونة؟.

« – ولكن لا يا أبتى. ليس بمستطاع أية علبة من الأقلام الملونة أن تحل محل خضرة المروج وحمرة الخشخاش البرى وصفرة النرجس وبياض الثلج وزرقة السماء. ما أريده هو دراجة سكوتر!..».

آه لو كان فى الامكان رؤية عينى مونيك إذاً لشاهد المرء عينين كبيرتين، نشوانتين بصمت ينم عن كلام كثير. لقد خيل اليها أن هذه الطفلة تنتمى الى خالد وان خالدا زوجها هى وانها هنا، شأنها فى جميع الأمسيات تنتظر رواية حلقة اليوم من سلسلة أسطورة لا تنتهى أبدا. وبدا لها أن زوجها لم يكن سيمون الموجود فى الطابق الأدنى، يلعب البريدج فى الصالون. وهى بدورها تخترع لنفسها قصة تلعب فيها، بصمت، دور الأم والأب. وسألت نيقول بصوت أكثر خفوتا.

« – وماذا؟ وماذا؟.

« – عندئذ حك الأب السنجاب ذقنه للمرة الثالثة وقال:

« – هل تريد أن أعطيك كمية من البندق لم يعثر أحد فى غابتنا على مثلها؟..».

لكن الصغيرة أسلمت جفونها للنوم. فانسحب خالد على اخمص قدميه وعندما صار فى الممر سألته مونيك:

– هل يمكننى أن أعرف نهاية القصة؟.

– اننى أجهلها أنا نفسى.

ومن خلال نفحة من التأوه ندت من صدرها، انطلقت هذه الكلمات:

– أحبك. لست غيورة من وريدة ولكن اسمح لى بأن أغبطها.

** معرفتي **
www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

وسوف لا أزعجكم أبدا.

وأمسك خالد بيدها لينزل الدرج ولكى يمد هذه اليد بالدفء ولسان حاله يقول لها : «سامحينى وشكرا».

***

كان سيمون فى الصالون لا يزال ماضياً فى لعبة البريدج. فهو فى بيته، وعلى راحته وفى عالمه وبين صحبه، مسترخيا كالعجين، يذكر منظر وجهه الجانبى، النابليونى بوجه تاجر حسن الهندام، أكثر مما يذكر بملحمة.

هكذا كان ذلك الأحد وهكذا ستكون جميع آيام الآحاد.

فى الصيف - فى سان لونير - يلتقط صورا ويعرضها على أصدقائه، ويبدل سيارته مرة فى العام ويقضى الشتاء فى ميجيف (يجب لفظها موجيف) وسيمضى الوقت كنهر السين ينساب بصورة أبدية شبيها بنفسه وسوف تختار مونيك صفيفا جديدا لشعرها عندما تغير السيدة فلانة ترتيب شعرها.

وعندما تصبح الوحدة، ذات يوم، ثقيلة بين اثنين، لا يطاق احتمالها، عندها لن تقول لا، لن تصد السيد الملحاح، عديم الصبر، ثم تسرع الى ايفلين - أفضل صديقاتها فتسر اليها بالخبر. فما العمل؟. هذه هى الحياة. بعدئذ يأتى سن التعقل والاتزان فتزداد زياراتها للحلاق فى شارع برى وأخيرا تتزوج نيقول فتى مضمون

المستقبل بطبيعة الحال...

وابدت مونيك ملاحظة:

- انت واسع الخيال يا خالد.

- حقيقة.

- وهل يمكنني أن أعرف بماذا تفكر؟

- هذا أمر بسيط جدا. أفكر فى صديق من أصدقائى أكل حماره وهو يبكى.

- لك أصدقاء. اطوارهم غريبة.

ليست اطوارهم باغرب من اطوار أصدقائك.

وعضت مونيك على شفتيها وقالت تقاطعه:

- هؤلاء ليسوا أصدقائى. انهم أصدقاء سيمون.

كان المطر قد توقف والشمس ترسل أشعتها متقطعة. ومن النافذة كان يستطيع الانسان اذا صعد درجتين أو ثلاثا الوصول الى شرفة تشرف على نهر السين. وكانت رطوبة الهواء تمتزج بالليل فى السكون نفسه.

وفى الاسفل كان النهر اللزج لا يكف عن السير.

- لا داعى للبكاء يا مونيك، لا داعى للبكاء فهو يحجب الرؤية الواضحة...

كانت مونيك فى الليل سجينة الليل الذى ارادته مع ذلك والذى

اختارته، وبمناسبة اشراقة أنارت أفق هذا اللقاء العابر، أخذت تقيس الآن مدى هذا الليل المضجر. الا أن الوقت فات، فات الأوان فيه منذ زمن طويل، فلا امكان لرجعة فيه. وليس في رصيف الأزهار من جميع نواحيه، من مجيب. ثمة امرأة فيه لم تجد سعادتها ورجل، لم يتعرف فيه على صديقه. كان هذا لونا من الاستغفال الساخر، واسع النطاق، يتمثل فيه خطأ التوزيع.

***

– كلا. لا تزعج نفسك. استمر فى اللعب يا سيمون.

– انك تمزح لا محالة.

– كنت أقتل الوقت.

ورافق سيمون ومونيك خالدا حتى باب الطابق الارضى.

– لا تنسى، عندما تصلك أخبار عن وريدة ان تطلعنا عليها. لكم أنت محظوظ! انك ستعود الى لقاء الشمس. قد نمر مع ذلك بالجنوب هذا الصيف قبل الذهاب الى بريتانيا. أليس كذلك يا عزيزتى.

– ربما، قالتها مونيك بصورة تكاد لا تلاحظ.

ثم نجت بنفسها راكضة نحو الدرج دون ودا ع. لم يكن هناك ما يقال، ولا شىء للتفسير الا هذا التعليق الصغير الذى بدر من سيمون:

– كنت أعلم انك جئتنا كارثة وافدة.

واشعل خالد سيجارة ووضع يده اليمنى على كتف من كان له صديقا فى يوم ما.

- السعادة يا عزيزى هى التى تسبب لك أكثر ما يمكن من المضايقات فليباركك الله...

ثم انصرف دون أن يصافحه. وراقب سيمون شبحه طويلا وهو يبتعد متوانيا، هادئا.

24

ذاك الاحد نفسه.

السماء تتجلى فوق قسطنطينه، وردية اللون. وطيور أبو سعد وعصافير الجنة (السنونو) تتنافس أشد التنافس، بلا ادنى انزعاج هى والهلوكوبتر والطائرات النفاثة. ولم يدم الربيع فى الجزائر. فمهمته تكمن فى اعلان قدوم الصيف. كانت المدينة تبدو انها تنتظر فلم تتوصل الاسلاك الشائكة والدوريات المتواصلة الى انتزاع فتورها المتجهم، وان كان صاح، ولا صبرها الطويل. فلقد رأت دوريات غيرها كثيرة. ولم يكن اليمام ينجو بنفسه. وفى مضايق الرومال تتحقق جماعات الوز من مهارتها فى النقيق بوقاحة ملحمية. وفوق سيدى – مسيد كانت طيور البواشق ترسم حلقات واسعة مسترخية. وفى الأسواق العربية تشوى عرانيس الذرة ثم تنضح بماء فاتر وتملح وتؤكل. والمظليون يتبخترون فى مشيتهم الرشيقة،

المرعبة فى شوارع صممت مع ذلك لدكالين الخرز والقلائد والاساور ولمبارزات رقيقى الحال ومقالب الصبية المشردين، البارعين فى ألوان الشيطنة.، الا أن المآذن تنبىء بالكوارث التي حلت.

كانت الشوارع الخارجة من المدينة تؤدى الى الحرب. الحرب الدائرة على مرمى قريب كل القرب، الماثلة نصب العين. تكفى لها ثنيـة من الأرض وباقـة من الدفل وغـابة من السنديان وغـصن مهجور...

فهى حرب يقظة.

كانت المدينة تستيقظ. وما تستيقظ حتى تجفل. والشتاء كان طويلا وشاقا وها هى السماء تعود الى صفائها. ولكن لا يأتى الى منحدرات وسفوح جبل الوحش من يقطف النرجس وشقائق النعمان! ولم يعد يجلب الفلاحون ابدا على ظهور بغالهم الى ساحة سيدى - جليس، قرب اللبن المخيض والقفف الصغيرة من جبن الماعز.

باتت قسطنطينة تعيش بعيدة عن العالم وبمعزل عن بقية القارات. فهي أكثر من عاصمة استراتيجية، أصبحت نوعا من الكيان القائم بذاته. وهى قد غدت، أكثر من أى وقت مضى، جزيرة فى محيط من الكوابيس. لكنها جزيرة ليست فى منجاة من العواصف.

***

يشرف شارع الهوة، العريض، المشجّر، على الوادى والسهل.

والانفاق ترشح رطوبة. ورءوس الجبال النافلة فوق الهوة تطل عليها من علو أكثر من مائة وسبعين مترا، تستخف بها. يا له من مشهد خيالى. وفى أدنى القاع، بعيدا، فى الاعماق، تتكسر مياه وادى الرومال فوق جسر مساقط المياه فتسمع زمجرتها كأنها احتجاج. والصخرة ترتفع عمودية. والى جهة الغرب ينساب طريق فيليبفيل وهو يخترق الحمة Hamma وهي واحة فاتنة أطلق عليها الفرنسيون اسم نزهة. وعلى جانب الطريق، عند خروجه من القرية باتجاه بيزو، قبل أن يتابع سيره نحو البحر، يقع معسكر للاعتقال. والى ما لا نهاية يمتد الاطلس التلى[1] وهو يشق الافق ملاصقا للطريق حتى ليخيل للمرء أن باستطاعته لمسه بذراعه.

ثمة ملازم، ضابط فى المظليين، يعانق رفيقته. يبدو المسدس الذى يحمله معلقا فوق فخذه، غريب الشكل. فهل يبلغ الخوف بهذا الحب حدا يشعره بوجوب الدفاع عنه؟ أفلا تكفيه شرعيته لحمايته؟

- ألا تأسفين على شىء؟

وأجابت المرأة :

- لست بآسفة على شىء. لقد اخترت.

- انك باختيارى أنا تحسنين الاختيار كثيرا!..

---

(١) فى الجزائر يقال الاطلسى التلى وهو يعنى جبال الاطلس والاطلس الصحراوى (المترجم).

ثم تنظر المرأة الى الجندى. فهى تبدو بجواره صغيرة. وتزيد أشرطة الرتبة، فى بزته العسكرية، الفارق بينهما.

وطير السنونو (عصفور الجنة) يهوى منسابا فى الفراغ. وثمة اغراب ينطلق مغادرا التينة البرية التى يأوى اليها. والى اليسار يبدو جبل شتابا كانه حوت هائل، بنفسجي اللون. وتعود الطائرات الى مقرها فى تلرغمة Telergmo بعد قيامها بمهماتها. ويمضى تمثال النصر المجنح، المقام لتخليد ذكرى الأموات، سابحا نحو أحلام مستحيلة التحقيق.

– سأذهب غدا فى عملية حربية.

وتداعب المرأة ظهر سترته. وتقول :

– ضمنى اليك.

ويتناجيان بكلمات لا ينطق بها. فلا نهاية تواجه لا نهاية، السهل الذى لا ينتهى والقبلة التي تبقى.

وهبت الريح. انها ريح البحر فعبثت بشعر المرأة خفقا كلهيب نيران السحر.

– انك جميلة، جميلة جدا.

– لا تتكلم ضمنى اليك.

انجلت السماء فوق قسطنطينة. وتدحرجت الشمس فوق جبل شتابا وغمرت الكون عاطفة زاخرة.

لم تخفف السيارة سرعتها، وتقافز الرصاص فوق الجسد الصغير الذى يصل طرفى الصخور ثم اختفت السيارة فى النفق. ولم تعد المرأة والجندى متعانقين. بل تحت شجرة التين البرية تلقفت ورقات التين العريضة دماء المحبين.

25

انتهى كل شيء. النور باهت فوق الجسر الجديد وسماء باريس باهتة وأنوار المنازل بدأت تضيء تباعا. وساعة الحائط، في احدها، تروى أن النهار كان طويلا. والجدران عطوفة والميناء في مأمن. وقد التأم الشمل.

أثناء مدة اقامها خالد بن طوبال في الصحراء، لزم البعد الحقيقي لضآلة قيمته. وهو يتذكر هذا...

كان هذا ذات ليلة ينيرها ضوء قمر باهت، مثل هذا المساء، في قلب (الارغة) الشرقية العظيمة، في وسط الكثبان الرملية المتحركة. وعلى حين مضى رفاقه يعدون الشوربة ابتعد هو عن سيارة الشحن التي تقلهم مندفعا وراء لذة صبيانية أخذ يجدها ورجلاه تغوصان في الرمال التي مازالت فاترة. الصمت مجدب كالصحراء والنجوم وحدها تذكر بوجود الله اذ آن (الارغة العظيمة) يستحيل أن تكون

عملا من أعمال الله. ففى جميع الأزمان ومن جميع الجهات فى العالم تنشأ الصلوات دائما من الصحراء. لذلك نتخيل بصعوبة ظهور مسيح من تورين أو محمد من سورى فالشقاء هو الذى أنجب المعتقدات كما ابتدع العطش السواقى. هكذا اذا مشى خالد تلك الليلة بلا قصد مدة خمس دقائق. فالصدفة هي القاعدة فى الصحراء دائما. وبغتة تملكه الخوف. وتجاوزه كل شىء. وأدرك أنه يجب عليه أن يحيا ويموت فى نفس الوقت وان فعلى الحياة والموت سيبقيان عالقين فى حنجرته. ولم يكن لا ابن آوى ولا غزالا فعاد مسرعا الى رفاقه يلتجىء الى حمى انسانيتهم ويقتسم معهم شوربة الشقاء والصبر.

ثم أدرك، بينما كان مولاى Moulay يغنى أن الصحراء تحتاج الى ورود. وأدرك أن وطنه سيبعث من كل ناحية. وأدرك كذب الوحوش الغبراء. ان الريح تهمس فى أذنه:

لا تقل أبدا أن الجزائر تفتقر الى الماء. ها هو ذا دمى.

من أجل جزائره المحبوبة ومن أجل البلدان الشبيهة بالجزائر فى العالم أراد كواكب أكثر قربا.

تلك الليلة، كان خالد بن طوبال يتهيأ نفسيا للاعتقاد بالرحمن.

26

– شكرا لك على مجيئك يا مونيك. فما كان يجب أن تحضرى .

لا تثريب. الزحمة المعتادة. كثير من العسكريين ومن أجهزة الراديو. وعربات نقل العفش والساعات (الدقاقة الكبرى، هذه العناكب الكسيحة، فى محطة ليون، الباردة الفسيحة. كل واحد من هذا الخلق يوظب مكان جلوسه أنه خلق يسعى وراء رغد العيش أكثر مما يسعى وراء السفر نفسه. فالسفر يهم قليلا وأقل منه الوصول أيضا . اذ أن التنقلات تندرج فى باب الروتين.

– اننى شديد الامتنان لقدومك.

كرر هذا وهو ينظر فى عينيها نظرات مستقيمة.

– نعم كثير الامتنان.

هو الآن ينظر دائما فى عينيها بعد أن عرف أن الحب اذا ما كان

منتديات سور الأزبكية ** www.books4all.net ** معروض

ممنوعا واذا ما كان مستحيلا يرتقى الى مستوى الحب. وحب مونيك يحتل مكانه بين ألوانه العظيمة، بين أعظمها مقاما.

- سأروى لزوجتى حكاية طيبتك.

وعثرت مونيك على الكلمات المناسبة:

- لكنها لا تستطيع أن تكون صديقتى مادمت أحبك يا سيد الماضى.

وعثر خالد على الكلمات التى تناسب المقام:

- بما اننى أحب وريدة فانها ستكون أختك يا سيدة المستقبل.

- وهل تظن هذا؟

- أنا متأكد منه. انني لم أشك قط فى وريدة. ثقتى فيها تامة لا تنفصم.

الا أن رقته أوحت اليه بأن يحول مجرى الحديث فليس من الحكمة والعدل أن يبسط المرء ألوان يقينه واطمئنان فكره أمام أولئك الذين يفتك فيهم صقيع الفراغ، أولئك الذين لا يملكون حتى مجردة القدرة على الشك نفسه بما أنه ليس هناك ما يبرر تشككهم.

عندما يصل الانسان رصيف المحطة متهيأ للسفر يشعر ان القطار يتلكأ ولا ينطلق أبدا بسرعة، أو أنه ينطلق دائما قبل الوقت ذلك أن المهل لا تحسب. فالانتظار وحده هو السفر الحقيقى.

***

كان يسافر فى نفس القطار ضابطان (أحدهما طبيب، تابع للبحرية والآخر رئيس فى المظليين) وخورى حديث السن وامرأة انجليزية يرافقها ابنها ولكنتها. وشاءت الصدفة فى حجز التذاكر ان تجعل مكان خالد ما بين الخورى والمظلى. وعلى هذا، قد يقال ان حياته ليست سوى سلسلة من المصادفات. ووضع حقيبته على الشبكة وعاد الى جانب مونيك، حيث تنتظر وقد وضعت قبعتها الرمادية الصغيرة فوق شعرها المعقوف وقد تماثل لوناهما. وبدت مونيك كأنها طيف هادىء جدا. وما يزال أمام تحرك القطار عشرون دقيقة.

– يا سيد الماضى، كان لدى من الوقت ما مكننى لشراء بعض الصحف لك فالسفر طويل كما تعلم.

وبكلمات مبالغ فى انتقائها، لطيفة ولها طابع الحكم.

– .. لا تنس يا عزيزى أن تتدثر جيدا. واكتب الي كل يوم. ألم تنس ماكينة حلاقتك الكهربائية؟ أبرق الي بوصولك أو تلفن لى. كلا لا تبرق ولا تتلفن. يجب أن تحرص على دريهماتك فانك ستحتاج اليها. وبخاصة كن حذرا فلا تغامر وراء أخطار لا فائدة منها. وأريد أن أعرف كل ما تفعله وكل ما تكتبه.

انى أمنعك من أن تكون أنيقا ومن أن تتخلى عن مكانك لامرأة جميلة جدا فى القطار..

لنحلم بمقدار درهمين.. أيتها السيدات. أيها الحوذى قده فوق شعاع من القمر!.. ليس هذا حوذيا، أنه سائق ميكانيكى لكن الامر سيان.

فانه سوف يشاهد مقاطعات جميلة.

فى ذلك المساء، كان الدور الذى يلعب هو دور الأب والأم، أما هذا المساء فيكاد ان يكون لعبة السيد والسيدة.

***

– يا سيد الماضى، كان لدى الوقت لشراء الصحف والفكرة بتقديم هذا اليك.

كان «هذا» الذى عنته، عندما فضت الرزمة بسرعة، سنجابا صغيرا أزرق، مدهشا.

– اعترف لك يا خميسى الصغير بأنني أفضل السنجاب على الصحف. فالصحف هى حسابات الحاضر، والحاضر بالنسبة لى، كما تعلمين.

– لكنك تكتب فى الصحف أو أن الصحف تكتب عنك.

– أجل، الا أننى لا أقرأها أبدا أو لا أقرأها الا نادرا. واذا كنت أقرأها اليوم فلأنها تحتوى على أخبار الحرب فى بلادى. فليست الصحف هى التي أقرأها فى الحقيقة وانما رسائل أم أصابها الضر ودنست. وأقسم لك بشرفى اننى لن أقرأ جريدة واحدة بعد أن يصبح

وطني حرا وآمنا. كذلك انني لن أكتب رسالة واحدة الى وريدة عندما لا تكون هناك مناسبة لكي أنتظر منها رسالة، ما دمنا سنكون مجتمعين اجتماعا لا فراق بعده.

- ألا تكتب اليّ اذن في هذه الحالة؟

- أنت حمقاء يا خميسي الصغير. أما اليك فسأكتب كثيرا، وكثيرا جدا ولن أكتب الى وريدة. فالانسان لا يكتب الى زوجته وهو يعيش معها كل يوم. وهذا هو مثل فرنسا...

***

«هكذا أخذت الرموز تتداعى، ولا شك أنها ضرب من التمثيل بالصور. الجزائر هي أمي.

«أنا خالد بن طوبال لا أبني حكمي على أفكار مسبقة، انما أنا رجل صدق ومكانة صغيرة، لا أحكم بأفكار مسبقة على تلك الفترة التي كانت فرنسا تستطيع فيها أن تصير أخت أمي. أختاً، لا هي البكر ولا هي أصغر سنا ولا هي أكثر غنى ولا أشد فقرا ولا هي أكثر حمقا ولا هي أكثر ذكاء.

« أنا خالد بن طوبال رجل الصدق والمكانة الصغيرة لا أبني حكمي على أفكار مسبقة بأن أمي تستطيع أن تكتب الى أختها على تلك البطاقات البريدية التي تذهلني بساطتها وبكلمات عربية وفرنسية: قبلات طيبة. كل شيء على ما يرام يسير سيرا حسنا..

فـمـا بين أمك وأمـى لا يوجـد دم مـشـتـرك ولكن يوجـد دم فى حـالة الاختلاط وفى رأيى يجب ألا تكونا سوى كنتين. هذا فى رأيى لكننى أريد أنا خالد بن طوبال رجل الصدق والمكانة الصغيرة أن تشم أمى أزهار البـرتقـال كـمـا تشم أمك أزهـار الـخـزامى، وأن تكون سـيـدة، سيدة فى مطبخها تماما مثلما تكون أمك فى مطبخها. ولكن أريد أن تقول أمك لنفسها أنه عليها أن تتعلم أشياء كثيرة من أمى وأن أمى قد عانت آلاما كثيرة من أمك أكثر مما عانته أمك من أمى.

«اننى أنا خالد بن طوبال، رجل الصدق والمكانة الصغيرة، أفكر أولا بـأمى ومـن خـــلال أمـى ومـن أجل أمـى، الأمـــر الذى لا يمـنـعـنى بالطبع من القدرة على مـحبة خـالتى بشـرط غير قـابل للمناقـشة وهو ألا يعتبر أولاد خالتى أنفسهم، أبدا انهم أعمامى!».

– السادة المسافرون!...

أى شبـه كان لخالد بن طوبال وهو يتـأبط صـحفه وسنجابه الأزرق الصـغير؟

تـحرك القطار وبقيت مـونيك زمنـا طويلا تنظر الى حـسـرتها وهى تبتـعد. وموسيقى السنجاب الصغير التي تعزف بمفتـاح النيكل تقول: خلف منزلنا يقع الجبل.

لكن صـوت القطار كان أقـوى. فقد كـان يغنى بصـوت يعلو وصـوت ينخـفض، وصـوت يعلو، وصـوت ينخـفض.. ايقـاعـا صـحـيـحـا تارة،

وأخرى خطأ..

وتجاوزت الحسرة مونيك. وهكذا سقطت على رصيف المحطة نقط ماء بين نقط أخرى.

أفيبارك الله جميع نقط الماء المالحة هذه التي لا هم لها الا أن تزيد فى خصب الاغنيات المعطاة ولا تطلب الا أن ترى فى الينبوع بوضوح؟

وراحت موسيقى السنجاب الازرق الصغير تعزف ومفتاح النيكل يدور عازفا معها: أنا، وصديقى، كنا نصعد اليه، كثيرا...

انتظر خالد حتى تفرغ الآلة الصغيرة. وفكر: «ثمة جبل يقع دائما خلف منزلنا. فالحيطان تبنى وتقام دائما لايقاف الحرية. لكن هذا الذى يبنى يظل دائما حائطا يجتازه المرء فاذا به يصبح طليقا حرا».

ثم حدث نفسه بأن وريدة، هناك فوق الجبل، حيث لا تنزرع الحيطان بأسلاك شائكة بل بالورود.

وعاد الى مقعده، هو وصحفه، وسنجابه الصامت.

كان الخورى والمظلى يقرآن. فأخذ يقرأ بدوره.

27

فى غـرفـة القطار ضـابطان (طبـيب فى البـحـرية ورئيس فى المظليين). وخورى صغير السن وانجليزية يرافقها ابنها ولكنتها وبعد هؤلاء يجىء خالد بن طوبال مع سنجابه الازرق الصغير الذى استغرق فى نومه كطفل السيدة الانجليزية.

ومن ثم كانت الصحف.

قبيل ديجون ثقبت التذاكر فاستيقظت السيدة الانجليزية واستيقظ طبيب البحرية.

وقبيل شالون أو ليون أطلق أحدهم هذه الفكرة:

- أنت لا تعرفهم يا أبتى. والضمير «هم» يعنى العرب.

بعد ذلك جاء دور الجريدة - كلا، كان ذلك قبل الوصول الى ليون، قبل الأنهار التى تخفى ما تبطن.

فى هذه الجريدة، التى اشترتها له مونيك - الخميس - الأزرق

قرأ خالد بن طوبال فى الصفحة الثالثة هذا الخبر الذى لا أهمية له - مكتوبا بحروف صغيرة:

تصاعد الارهاب فى الجزائر

(هذا هو العنوان كتب بأحرف أكبر) ثم يليه الخبر، عديم الأهمية:

... اغتال بعض الارهابيين امرأة مسلمة وضابطا مظليا فى شارع الهوة بقسطنطينه. وقد سبق للضحية البائسة تأكيد اعتقادها فى قيام جزائر فرنسية وذلك باشتراكها فى جولة دعائية مع زوجة الجنرال x .... وقطعت منذ عدة شهور علاقاتها بزوجها الكاتب صاحب الاسم المستعار خالد بن طوبال، هذا الكاتب الذى ما يزال الافتقار الى السلطة يسمح له بالتعبير..

28

هذا غير صحيح! هذا مستحيل. وفيما هو يشعل سيجارة قد تعلق بخيط من الحقيقة يثبت لى اننى فهمت خطأ وانني رأيت حلما واننى لم أقرأ جيدا. هذه ظاهرة دارجة فى طريقة تفكيرى وفى عملى. فأنا لست مفكرا بالمعنى الصحيح وانما أنا حالم...

هذا غير صحيح! قد يكون بتأثير العاطفة والسفر وكتابى الاخير الذى انهكنى.. فالأعصاب تتغلب عليّ دائما. يا لها من مهنة هذه التى امتهنها، تستنفد القوى بخشونة. وعندما كنت صغيرا، كثير اللعب فى الشارع جعلتنى سقطة من على الدراجة، ذات يوم، أهذى فرأيتنى أقبل أختى من شفتيها وأداعب ثدييها. يا الهى كم كان ارتياحى عظيما عندما استيقظت. فلابد من أن يكون هذا نفس ما حصل لى آنذاك. ان عادة الشقاء تجعلنى أعتقد بأن كل شىء متاح وان كل شىء ممكن. هذا غير صحيح! انك تهذى يا عزيزى خالد،

تفقد الزمام، وتبتعد عن الصواب. ألست خجلا من هذيانك وافلات زمام نفسك وابتعادك عن الصواب؟ أعد قراءة هذه الجريدة الزانية أعد قراءتها. لماذا لا تعيد قراءتها؟ هل أنت خائف من ان تتحقق من خطئك أو من خطأ الله؟ هذا غير صحيح! أعد قراءتها. لماذا لا تعيد قراءتها اذن؟.. وقطعت علاقاتها منذ عدة شهور بزوجها الكاتب الذى يوقع باسمه المستعار خالد بن طوبال.. لست أعلم بوجود كاتب غيرى باسم مستعار أو باسم حقيقى يدعى خالد بن طوبال وبالتهجئة ذاتها.. ولا أعرف ان هناك مدينة فى العالم باسم قسطنطينة غير هذه المدينة ولا شارع الهوة وجبل شتابا ومضائق الرومال.

لا! وربى لا! إنه لأمر شنيع! الوضوح يمتزج بالشك. ترفض الصورة، وترفض الصور.. فما كانت تفعله وهى فى صحبته، كانت اذن تستطيع أن تأتيه مع كائن من كان غيره؟.. لا، لا! معى أنا، كان دافعها الحب، كان دافعها الحب.

الفكرة تتمركز وتفرخ كما يقال، أنت أحمق، انك لأحمق! ان التمزق يتجاوز الغيرة.. انك لفى درجة من الجمال، يا حبى، بحيث كنت أتهيب استنشاق عبير شعرك، وخاصة ألا أغير فى ترتيبه فهو يعرف كيف يعيش الى حد بعيد. وكنت خاصة لا أود النظر اليك برغبة عندما اشتهيك فانتظر حتى يتناسق كل شىء من ذاته وحتى تفهمين كلماتى الخجلى وحركة يدى الخشنتين. ويصبح الاطار رفيقا

طيبا يكاد يشارك فى الذنب، وقد عقل لسانى الاعجاب وطفحت جوانحى حياء وجرأة وحبا واحتراما وانطلاقا وابتهالا..

يا الهى، شكرا لك فالبيت دافىء والأطفال نيام. وقد نهضت عن الديوان للعمل على اسكات مالكه بوضع نقطة من العسل على بزازتها. ان أخى الطبيب يخالفنى الرأى فى هذا العمل.

... لكن الفكرة تتمركز. ماذا! اذن؟ ان جميع تلك الكلمات المبتدعة لتنطق بالموسيقى من أجلك يا وريدة ولتكون بردا لطيفا، ثلجا عاشقا ورطبا يحيط بعناقاتنا.. ان جميع تلك الكلمات التي تعرفينها، كنت أنت، فيها، فى آن واحد، الهامى وصداى.

فلو كنت انجليزية كالسيدة الجالسة أمامى لكنت أنا انجليزيا. لكنت أتغنى بالتايمز. وما كان أى شىء ليكون الا وسيلة لأبسط التسابيح: كانا سعيدين جدا ورزقا أطفالا عديدين.

هذا غير صحيح!

– ماذا اذن، لقد بحث عن يدك كما كنت ابحث عنها فى الظلام بما اننى كنت أتحاشى يدك فى فترة الانتظار التي يتخللها العناق المحتوم. وبتلك الكلمات التى يبثها جميع الرجال. فاصغيت لها، وكنت تصغين اليها وتفهمينها وتجيبين عليها! .. يا الهى، أيتها الاذن الصغيرة، لماذا؟ لماذا؟ .. لا يخدع الانسان الا من نفسه.

انت تهذى يا عزيزى خالد بن طوبال، أنت تفقد زمام أمرك، انت

تخرج عن الصواب، أنت الرجل الصادق، صاحب المكانة الصغيرة.

الحرب، الحرب، لقد ضاقت ذرعا بوجودى. فالقطار كله يتكلم الوجود له يغنى، ويردد، ولا يبالى، ويستمر. والذى سيستمر دائما. فى سبيل الأسوأ وفي سبيل الأسوأ، فى سبيل الأسوأ وفى سبيل الأسوأ...

لتنهد القطارات أيضا، ان قيمتى الوحيدة ستكون على كل حال اننى اعتقدت فى القذارة. وفى اننى، أنا نفسى، من القذارة. وما يتبقى فهو من الادب، إنه من الزوبيا Zoubia كما يقال فى أزقة العرب. يولد أحدنا محظوظا لمجرد كون الاهمال أو الرعاية تهيمن على حياته أو على عدم وجوده. ولتطلق نار المدافع الرشاشة على المدينة وعلى القطارات ما دام قد شاهد أحدهم ندبة الزائدة فى جسم زوجتى وبما ان الله نفسه لم يتول مسئولياته.

***

هذا مستحيل !

ماذا يمكن أن تعنى كلمة الاستقلال، بالنسبة لى، وفى ابتسامتى العريضة، ابتسامة الاحمق المحطم. فقد يحجز أحد المرافىء للمركب الأخير الناجى من العاصفة. ولكن لم يبق ثمة مرفأ.

ان مركزية الذات التى تحكم علاقاتى بالآخرين هى المظهر الوحيد المقبول فى تضامنى معهم. والآخرون محكومون باحكام

مبرمة مثلى. الا أن الآخرين سوف يتفاهمون فيما بينهم فى يوم أو فى آخر.

***

وفهم خالد بن طوبال مقال الصحيفة. لقد قرأه جيدا. فلم يكن يحلم ولم يخدع بل هو الذى أخطأ. ورصيف الأزهار لم يشارك فى شىء. الرقم كان صحيحا. لكن الجواب كان سيئا.

***

غادر الغرفة وهو يبتسم وذرع الممر حتى نهاية العربة. انه يشعر بالحر وهكذا فتح النافذة.

ان اللوحة النحاسية المكتوبة بثلاث لغات أو أربع ما عدا العربية بالطبع، تذكر: بأن مد الرأس من النافذة خطر جدا.

الهواء لا ينعش.

توجد ثلاث درجات. الليل بارد كنظرة الأعمى. والليل لا يجرؤ على النظر اليه وجها لوجه ما دام مغمض العينين.

ومن حين الى آخر يخال أنه يرى ضيعة، المضاجع فى غرف النوم غير مرتبة. انها قصيدة فى كل لحظة، وفى جميع اللحظات والقطار الذى يشبه الرومبا المستطيلة يتابع طريقه.

أعواد الكبريت لا تصمد فى مهب الريح. والنجوم تنحسر وراء الغيوم. ومثلما يعبث المرء بزنبرك ساعته كان خالد يدير مفتاح

النيكل فى السنجاب الازرق الصغير :

أنا، وصديقى، كنا نصعد اليه كثيرا.

***

انطلقت الجريدة باتجاه فالانس. ولو كانت للريح موهبة أو قلب لكان حملها الى ركن ما فى قسطنطينة.

الى ركن ما فى قسطنطينة.

انه القطار الذى يقول هذا.

لكن الريح لا تأبه ولا تهتم بذلك.

29

هذه هى المرحلة الثانية .

ينبغى أن نذكر ذلك.

هذا صحيح يا بنى، يمكنك ان تستمر. فأنا أعرف تردد التفاؤل المتخلف. وأنت تقيم وزنا كبيرا لحلمك كله. انزل، انزل أيضا. وهذا القطار ينصحك به. ومن ناحية أخرى فان فوديك يحكيانه.

الا أن خالد بن طوبال يمعن فى اتكائه على القبضة النحاسية. الريح لا تثمله لأنه فى صحو من حبه.

***

كان يجب ألا يقترف هذا بحقى، وألا يقترف هذا بحقك والا يقترف هذا بحق أولادى.

كان يجب ألا يقترف هذا بحق وطنى الذى لم يعد وطنك الآن.

الآن..

كان يجب احترام الشرط الأول والانشودة الأولى.

كان يجب أن أمنح السماح بالتذوق والحق فى التذكر. خيانتك لا تعادل أسايا وغلطتك سوف تجلب لك الخسران. أنت مجرمة فى نظر الحب والشرف والحرية.

سوف يحرم أولادى مما لا يستطيع ولا يعرف كيف يوفره لهم، أحد غيرى:

الحب والشرف والحرية.

انت مجرمة فى نظر أولادى.

والله. هذا اللغز القديم، هو مسئول فى نظرى.

***

المرحلة الثالثة

***

لقد رافع خالد بن طوبال فى قضية الطوايا السليمة المؤكدة.

... يا دروب ستورا، يا ضفادعى، ويا ألهيتى ويا فواصل الحرير الأزرق، كونوا وديعين. أيتها الازقة التى تشبه رقتها الخواصر - هل يتذكرك؟ - اننا لم نكن نبحر فى صمت.. كان ابحارنا نحو كاسى Cassis أو نحو كافالو. وكان الوقت صيفا دائما وفى أوقات الراحة دائما. وكان دائما هو الحب الذى يعرف أن يمحص ذاته.. تعلمت الحب بأساليب البراءة لكم كانت أغنياتى تشبه أمنياتى ولكم كنت

أكتب على فستانك هواى وثقتى ورغبتى. وكانت كتابتى هى القصيدة الحقيقية.

***

المرحلة الثالثة والقطار يتابع سيره.

أحبك يا أميرتى وأرافق رفيقتى وأعانق قبلة وأبصر نظرة وأبدع وردة وكنت اذا ما اعيتني الريح أنظم منها الأغنيات.

***

يا صديقتى الطيبة، انك لم تخونينى بل اخطأت

لقد حرمت نفسك.

لسوف تكونين، وحدك، وحدك، فى ذكرياتى بين العادات الكئيبة الجديدة، ولن تفرغى للذات الامير الذى كان يجعل منك أميرة.

***

يجب الانحدار الى جهنم. يا لله، يا الهى، ابتهل اليك، خاصة ألا تنظر اليّ.

***

قفز خالد بن طوبال بين عارضتى الخط الحديدى. كان يذهب الى لغز قديم ليطلب منه الحساب.

صدر من هذه السلسلة

1 - عيون الغرباء .... فتحى غانم
2 - السرداب رقم 2 .... يوسف الصائغ
3 - حكايات للأمير .... يحيى الطاهر عبد الله
4 - مجنون الورد .... محمد شكرى
5 - نجمة .... كاتب ياسين
6 - نهر المجرة .... عبد الوهاب البياتى
7 - السد .... محمود المسعدى
8 - بناية ماتيلد .... حسن داوود
9 - سرير لعزلة السنبلة .... محمد الأشعرى
10 - حجر الضحك .... هدى بركات
11 - سأهبك غزالة .... مالك حداد
12 - الخماسين .... غالب هلسا
13 - حزن فى ضوء القمر .... محمد الماغوط
14 - مختارات .... وديع سعادة
15 - سباق المسافات الطويلة .... عبد الرحمن منيف

16 - دعـوا الشقـاء سـالمـاً .... عبـاس بيضـون

17 - أف ! .... زكـريا تامر

18 - مجنون الحكم .... سـالم حميش

19 - مخـتارات من القصة المغربية .... اختيار وتقديم أحمد بوزفور

20 - يغير البحر ألوانه .... نازك الملائكة

21 - مختارات من القصة العراقية .... ياسين النصير

22 - ملحمة السراب .... سعد الله ونوس

23 - عليك تتكئ الحياة .... ممدوح عدوان

24 - حكاية زهرة .... حنان الشيخ

25 - ليس في رصيف الأزهار من يجيب .... مالك حداد

رقم الايداع : ٩٩/٧٨٦٦

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦

ليس فى رصيف الأزهار من يجيب

الزمن، هذه القطعة من الفلين التى تلقى فى الجدول وتنساب مع الجدول وتتبع المجرى الرتيب فى منحدرات غير مختارة، الزمن هذه الطفولة المستثيرة بكل بصيرة الأب، الزمن هذا السافل، هذا النشال الذى ينسل بين الاصابع وبين الجفون، هذا الزمن كان فى نظر خالد بن طوبال محدثا قيما وصديقا غادرا.

آفاق الكتابة

شركة الأمل للطباعة و النشر